منارات
manarat

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

ملحق ثقافي اسبوعي يصدر عن جريدة المدى

العدد (2220) السنة التاسعة - السبت (13) آب 2011

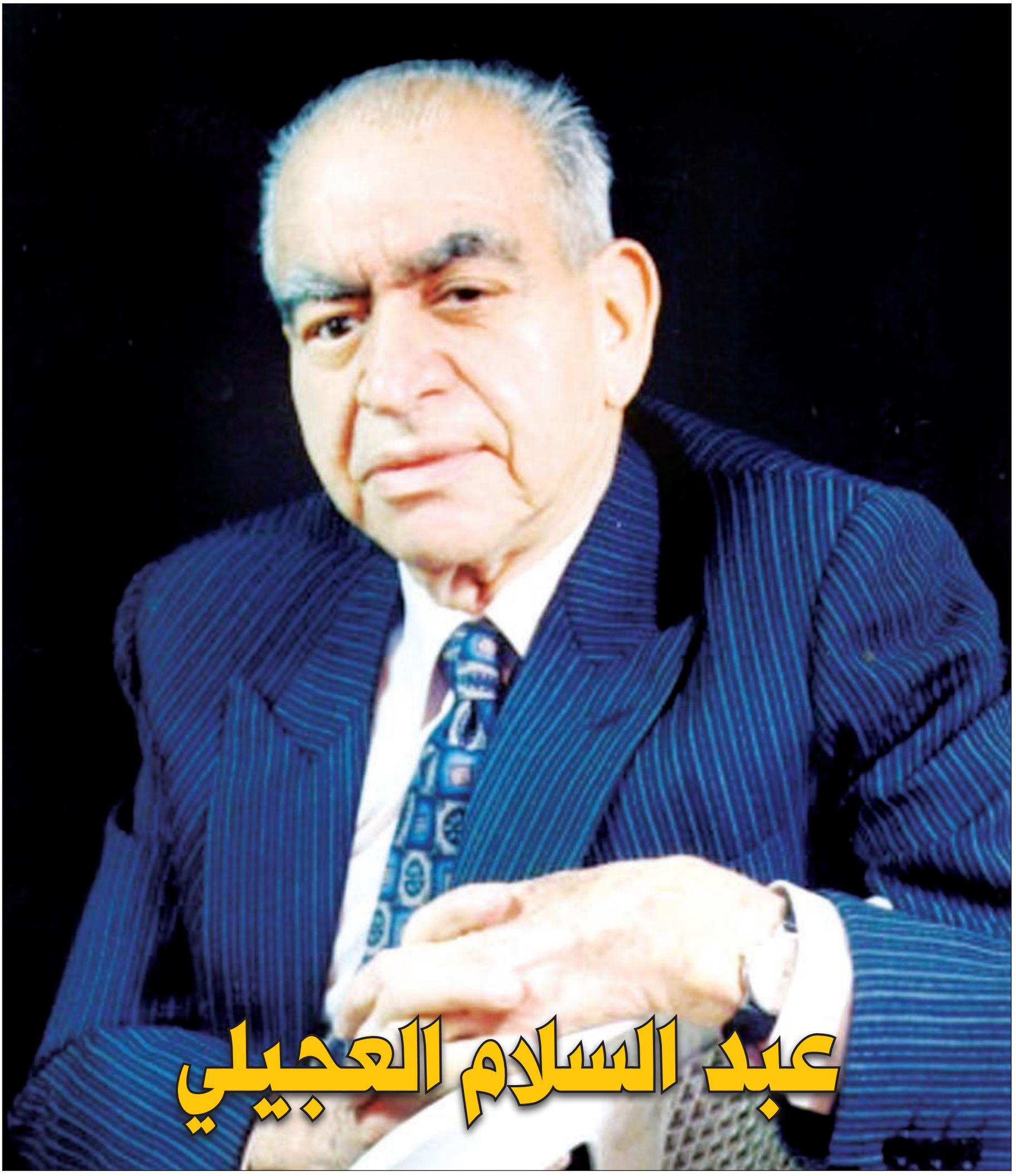

عبد السلام العجيلي

ولد في الرقة ١٩١٨
عمل أيضاً في الطب والسياسة.
درس في الرقة وحلب وجامعة دمشق، وتخرج منها طبيباً عام ١٩٤٥.
انتخب نائبا عن الرقة عام ١٩٤٧.
تولى عدداً من المناصب الوزارية في وزارات الثقافة والخارجية والإعلام عام ١٩٦٢.
أصدر أول مجموعاته القصصية عام ١٩٤٨ بعنوان بنت الساحرة.
كتب العجيلي القصة والرواية والشعر والمقالة.
بلغ عدد أعماله حتى ١٩٩٥ ثلاثة وثلاثين كتاباً

عبد السلام العجيلي

من أعماله:

-الليالي والنجوم (شعر ١٩٥١)
-باسمة بين الدموع (رواية ١٩٥٨)
-الحب والنفس (قصص ١٩٥٩)
-فارس مدينة القنطرة (قصص ١٩٧١)
-أزاهير تشرين المدماة (قصص ١٩٧٤)
-في كل واد عصا (مقالات ١٩٨٤)

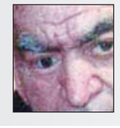

ومن أعماله الحديثة:

-أحاديث الطبيب (قصص ١٩٩٧)
-ومجهولة على الطريق (قصص ١٩٩٧).
يعد أحد أهم أعلام القصة والرواية المعاصرين في سوريا والعالم العربي.
تبدو المدرسة الواقعية في الكثير من أعماله.
توفي في ٢٠٠٦/٤/٥

العجيلي أبن مدينة الرقة

هناك مبدعون ترتبط اسماؤهم بمدنهم وهي في الان نفسه مسقط رؤوسهم، فنجيب محفوظ اقترن اسمه بالقاهرة ومحمد زفزاف بالدار البيضاء وخيري الذهبي بدمشق القديمة وغائب طعمة فرمان ببغداد وصلاح بوجاه بالقيروان وهكذا. ود. عبد السلام العجيلي هو ابن مدينة الرقة السورية التي تقع في الشمال الشرقي من هذا البلد العربي وعلى شاطىء الفرات قبل دخوله الاراضي العراقية. وهذه الارض الفراتية تشبه بعضها، لا بل انها امتداد متواصل لا يجعلك تحس انك قد عبرت بلدا ودخلت آخر. فالطريق هو الطريق والناس هم الناس واللهجة هي اللهجة حتى انني فوجئت بالمذيعة التلفزيونية رشا العجيلي وهي تتكلم باللهجة العراقية فسألتها ان كانت من العراق وتعمل في التلفزيون السوري فابتسمت وقالت: هذه لهجة المدينة، وهي ابنة اخ المحتفى به د. عبد السلام العجيلي. ذات يوم كانت هذه المناطق وصولا الى حدود بغداد وخاصة في العصر العباسي من اجمل المتنزهات ومضارب الفرح والسمر والاستجمام حتى ان ابا نواس قال:

عبد الرحمن مجيد الربيعي

واسقني من خمر هيت وعانات
ومن المؤسف انني لا أتذكر الآ عجز هذا البيت الذي يؤكد جمال المدن الفراتية. وهيت مشهورة بنواعيرها وهي على هيئة مراوح عالية تدور فتنقل الماء من الفرات المتخم بمائه الى الاراضي الزراعية.
كنا مجموعة من الادباء العرب جئنا من عدد من البلدان العربية ملبين دعوة اخينا حمود الموسى مدير دار الثقافة بالرقة التي تحمل اسم د. عبد السلام العجيلي وفي قاعتها الكبرى تمثال نصفي كبير له. والاخ حمود الموسى هو الذي انتبه الى اهمية ان تعقد ندوة سنوية عن الرواية السورية وتحمل اسم احد روادها وبغية انجاز مشروعه الذي دعمته وزارة الثقافة ومجموعة من المؤسسات الرسمية والاهلية وكذا رجال الاعمال في المدينة فقد استعان بخبرة بعض الادباء العارفين بالرواية العربية وبينهم الروائي نبيل سليمان الذي عمل مدرسا للغة العربية في احدى مدارس الرقة الثانوية في بدايات حياته العملية لذا لم نستغرب عندما حضر شيخ قبيلة بثيابه العربية، وهو يسأل عن نبيل مؤكدا انه كان تلميذه. واكراما لاستاذه والضيوف فقد اعد لنا وليمة عربية كبيرة في مضافته ونحر لذلك ذبائح عدة ونقل الطعام في صحون كبيرة حيث جلس الضيوف على الارض المفروشة بالسجاد ليتناولوا طعامهم.

تخرج العجيلي من كلية الطب في دمشق عام ١٩٤٥ وعاد الى مدينته ليفتتح فيها عيادته ولم ينقلها الى اي مدينة اخرى.
وكنا نقرأ قصصه التي ينشرها في المجلات الادبية المعروفة مثل (الآداب) اللبنانية ويذيلها باسم مدينته.
ومن الرقة رشح للنيابة ففاز بها اكثر من مرة كما شغل لاحقا منصبين وزاريين هما الخارجية والثقافة.
وكانت اول قصة ينشرها يعود تاريخها الى عام ١٩٣٦ اي قبل سبعين سنة.
وظل العجيلي ينطلق من الرقة الى العالم وقد عشق السفر مبكرا وجاب الدنيا وانجز عددا مهما من كتب الرحلات التي تشكل مرجعا مهما كما ان هذه الرحلات شكلت موضوعات لاهم قصصه ورواياته.
كانت الرقة المحطة والمرفأ له، رغم بعدها عن العاصمة التي جلب نداؤها جل مبدعي الاطراف والقوى البعيدة الا العجيلي فكان استثناء.
ذكر لي احد الاصدقاء (الرقيين) ان العجيلي بقي يمارس دور شيخ القبيلة بالنسبة لقبيلته ويحرص على ان يقوم بدوره كاملا في هذا المجال. وقد اكتشفت شخصيا من خلال قراءاتي لقصصه ورواياته (وذكرت هذا في لقاء مع تلفزة دمشق) إن الرقة مدينة صغيرة من الممكن جدا ان تستنفد ابداعيا. انها ليست القاهرة بملايينها الذين يقربون من الثمانية عشر او اكثر ولهذا ظلت نابضة حية في الابداع الروائي المحفوظي مثلا، وكأني بالعجيلي وقد ادرك هذا مبكرا لذا شكل السفر محور اهم قصصه ورواياته. اي انه ابتعد بها عن الرقة وان كانت نظرته تظل نظرة ابن الرقة وبذا اتسعت مدونته الابداعية.
كما ان مدينة كالرقة ما زالت محكومة بالتقاليد الصارمة فيها الكثير من المحرمات الروائية، وقد اخبرني الروائي والباحث السوري ابراهيم الخليل وهو ابن الرقة ايضا و المقيم فيها والمتخصص قراءة ونقدا بأعمال العجيلي بأن روايات وقصص العجيلي لا وجود لامرأة واحدة من الرقة فيها!
وهذه ملاحظة مهمة رغم ان رواياته هذه مليئة بنساء من مدن او بلدان اخرى.
لقد اطلق على العجيلي لقب ايقونة الرقة وهو هكذا فعلا رغم ان الكبر اقعده في فراشه (ولد سنة ١٩١٨) ولذا تعذر عليه حضور حفل الافتتاح التكريمي له واكتفى بارسال كلمة قرئت نيابة عنه. كما قام عدد من الضيوف بزيارته في بيته لتحيته.

(٢)

يذكر العجيلي في الاحاديث التي تجري معه (ان الادب بالنسبة له هواية) ولكنه مع هذا انجز فيه اكثر من خمسة واربعين كتابا جمع فيها حصيلة ما عاشه وما رآه ولخص في هذه الكتب تجربته في الحياة والسياسة والطب.
ولذا ان نعرف بأنه وفي بداية حياته السياسية التي سارت بموازاة ممارسته للطب وفوزه بالبرلمان مرشحا عن مدينة الرقة استقال من عضوية البرلمان ليلتحق بجيش الانقاذ طبيبا جراحا وذلك في عام ١٩٤٨ دفاعا عن الحق العربي في فلسطين.
اي ان ابهة الموقع النيابي لم تصادره فتخلى طائعا من اجل مداواة الجرحى الذين ادرك ان حاجتهم الى طبيب هي أكبر من حاجتهم الى برلماني.
هكذا بدا الامر لي وانا اتوقف عند هذه المسألة تحديدا.
عندما وصلت الرقة كان ذلك بعد رحلة طويلة حيث غادرت الطائرة مطار تونس في التاسعة والنصف مساء، ووصلت مطار دمشق بعد منتصف الليل بساعة ونصف تقريبا حسب توقيت دمشق.
وكان على الانتظار ساعتين حتى يحين موعد الطائرة المتوجهة الى حلب التي وصلتها فجرا. وهناك كان في انتظاري اثنان من اسرة الندوة لتمضي بنا السيارة باتجاه الرقة.
وعندما وصلت كانت الساعة تربو على السابعة وبعض الضيوف يتوجهون الى مطعم الفندق لتناول طعام الافطار، وارتأيت ان ادع النوم جانبا واذهب الى غرفتي لاحلق ذقني. ولم يأخذ مني هذا اكثر من نصف ساعة لارافق الضيوف بعد السلامات والعناقات الى مبنى المركز الثقافي وهو مبني كبير جدا وفيه عدة قاعات للمحاضرات والندوات وتحلم كل مدينة عربية بنموذج مشابه له.
كان النصف الاول من النهار مخصصا لزيارة معالم اثرية وحضارية في المدينة او على مشارفها واهمها اثار مدينة كاملة اسمها الرصافة وساعد على لذة التجوال الجو الدافىء والسماء الصافية والشرح المستفيض من خبير في الاثار.
بعد ذلك ذهبنا الى سد الفرات هذا الانجاز الكبير الذي تتباهى به سورية الحديثة وقد انجز ليضم مياه الفرات في بحيرة كبيرة حتى لا تتبدد لا سيما وان الجانب التركي قد اقام سدودا عند منبع الفرات الامر الذي قلل من كمية المياه التي تعطي لسورية والعراق باعتبار النهر مشتركا بينهما.
نسيت وانا اتجول انني لم انم منذ اكثر من ثلاثين ساعة، وكان على ان اخذ قسطا من هذا النوم اللعين الذي لا بد منه لنتجدد.
ضمت قائمة المدعوين لحضور مهرجان العجيلي الاول للرواية العربية عددا من الاسماء المعروفة في كتابة الرواية ونقادها سواء منهم من ساهم ببحث او شهادة او من تمت دعوتهم كضيوف شرف.
وتوزعت الجلسات وعددها سبع جلسات على ثلاثة ايام وساهم فيها قرابة ٣٥ مدعوا، والنسبة الكبيرة من البحوث

تخرج العجيلي من كلية الطب في دمشق عام ١٩٤٥ وعاد الى مدينته ليفتتح فيها عيادته ولم ينقلها الى اي مدينة اخرى.
وكنا نقرأ قصصه التي ينشرها في المجلات الادبية المعروفة مثل (الآداب) اللبنانية ويذيلها باسم مدينته.
ومن الرقة رشح للنيابة ففاز بها اكثر من مرة كما شغل لاحقا منصبين وزاريين هما الخارجية والثقافة.
وكانت اول قصة ينشرها يعود تاريخها الى عام ١٩٣٦ اي قبل سبعين سنة.

◄

كانت عن الدكتور العجيلي الامر الذي يجعل من نشر هذه البحوث في كتاب عملا مطلوبا جدا ورغم العديد من البحوث والرسائل الجامعية التي كتبت عنه فان نشر البحوث الجديدة وجلها لادباء من الاجيال اللاحقة لجيل العجيلي عمل مهم اذ انها تشكل اعادة قراءة لهذه الاعمال وفي هذا تجديد وتجدد لها واتمنى على الاخ حمود الموسي مدير دار الثقافة ومن معه ان يسارعوا في طبع هذا الكتاب.

من الباحثين والادباء السوريين ساهم علي زيتون بدراسة مجموعة الخيل والنساء وياسين رفاعية كتب عن الفن الروائية عند العجيلي ود. مصلح النجار عن ثباتيات القيم من النص الروائي عند العجيلي وممدوح عزام العجيلي وانا ووليد اخلاصي (الجليل الجميل عبد السلام العجيلي) وابنة اخيه الاستاذة الجامعية شهلا العجيلي (حينما ينقلب السرد على السارد) وبسام بليبل (من ايهاب الشعر الى فضاء النثر). نذكر هنا ان للعجيلي ديوان شعر واحد صدر في بدايات حياته الادبية ود. عبد الله ابو هيف (النقد الخاص بالعجيلي) والروائي نبيل سليمان (الذي حظيت اعماله الروائية بعدد من الدراسات جاءت في الترتيب الثاني بعد تلك التي قدمت عن المحتفى به) فقد قدم موضوعا بعنوان (ابن الرقة) وقدم د. عادل الفرلجات (السرد المؤثر والمغير في رواية العجيلي اجملهن نموذجا) ويقدم روائي وباحث رقي معروف هو ابراهيم الخليل موضوعا عنوانه النص التابع والاذاعية نهلة السوسو قدمت هي الاخرى شهادة بشأن تقديم القصة والرواية اذاعيا من خلال تجربتها مع ما من بها من اعمال اهتمت بها وبينها اعمال للعجيلي.

اما من الضيوف العرب فقد قدم د. صلاح فضل (مصر) قراءة لرواية العجيلي اجملهن وكاتب هذه السطور بحثا عن توافق تقنيات المقالة والقصة القصيرة عند العجيلي من خلال كتاب في كل واد عصا وقصة مذاق النعل مع التوقف عند اسبقية العجيلي في الكتابة عن السجن السياسي اذ تعود هذه القصة لعام ١٩٦٤ وقدم د. عبد المجيد زراقط (لبنان) دراسة عن رواية المغمورون البنية والرؤية وهي من بين الاعمال الروائية الاخيرة للعجيلي. اما الباحث فاضل الربيعي العراقي فقد توقف في بحثه عند تجربة الروائي السوري خيري الذهبي. وعنوان بحثه خالقو الاساطير الجديدة وللدكتور محمد عبيد الله (الاردن) دراسة عن الرواية درج الليل درج النهار .

وقدم د. جهاد نعيسة قراءة لاعمال خيري الذهبي تحت عنوان تناسج المجاز والواقع في العالم الروائي لخيري الذهبي . وحظي سليم بركات بدراسة واحدة قدمها الناقد خالد الحسين.

اما الذين قدموا شهادات تتعلق بفنهم الروائي فهم: د. هيفاء بيطار، خليل صويلح، خيري الذهبي، سمر يزبك، فواز حداد، ماجد العويد، كما كانت للناقد الدكتور نضال الصالح دراسة مهمة عن مساهمات النص الروائي النسائي.

فن القصة القصيرة عند العجيلي ومن الجزائر قدم بحث للناقدة فضيلة فاروق خريس (الاردن) موضوع بعنوان بمثابة بيان على بيان وهو مقاربة لاحد مؤلفات الروائي نبيل سليمان النقدية. وتتناول الروائية نعمت خالد تجربة سليمان ايضا من خلال احدى رواياته.

ونشير هنا الى ان البحوث الاخرى التي تناولت اعمال هذا الروائي عديدة ومنها: رجل من جرماتي لزهير جبور ود. رضوان قضماني الذي قرأ احدث اعماله

لا يدري المرء من اين اشتق اسم الرقة ؟ وهل هو من الرقة بمدلولها الناعم الجميل؟ يبدو ان الامر هكذا. وقد نقل عن الخليفة العباسي هارون الرشيد قوله الدنيا اربعة منازل هي دمشق والرقة والري وسمرقند. وسأقتبس من الباحث الاستاذ محمد جدوع ما اورده في كتابه التاريخ والعجيلي ما قاله عن تاريخ الرقة اذ قال والرقة لم يجهلها التاريخ قبل الفتح الاسلامي لها. لقد عرفها بأسماء عدة توتول و نقفوريوم ثم كالينيكوس في عهد الاسكندر المقدوني وما قبله، كما عرفت باسم ليونتوبوليس في العهد الروماني نسبة للامبراطور الروماني ليون الثاني الذي اعاد بناءها .

اصوات التسعينيات نموذجا ومن مصر قدم الروائي عزت القمحاوي موضوعا مهما عن التواصل جغرافيا وابداعيا وكيف عرف العجيلي.

كل هذه الموضوعات نوقشت باريحية بعد كل جلسة من اجل استكمال غاياتها ومراميها.

(٢)

لا يدري المرء من اين اشتق اسم الرقة ؟ وهل هو من الرقة بمدلولها الناعم الجميل؟ يبدو ان الامر هكذا. وقد نقل عن الخليفة العباسي هارون الرشيد قوله الدنيا اربعة منازل هي دمشق والرقة والري وسمرقند .

وساقتبس من الباحث الاستاذ محمد جدوع ما اورده في كتابه التاريخ والعجيلي ما قاله عن تاريخ الرقة اذ قال والرقة لم يجهلها التاريخ قبل الفتح الاسلامي لها. لقد عرفها بأسماء عدة توتول و نقفوريوم ثم كالينيكوس في عهد الاسكندر المقدوني وما قبله، كما عرفت باسم ليونتوبوليس في العهد الروماني نسبة للامبراطور الروماني ليون الثاني الذي اعاد بناءها .

ويذكر محمد جدوع ايضا: ان الق الرقة ودورها التاريخي استعيد حينما اغري موقعها المتوسط والفريد الخليفة العباسي ابا جعفر المنصور المولع في اشادة وانشاء المدن حيث امر ببناء مدينة حديثة اطلق عليها اسم الرافقة بموقع غير بعيد عن الرقة القديمة على غرار عاصمته بغداد ذات السور المستدير ويذكر كذلك: ان لطف مناخها وعذوبة مائها ونقاء هوائها وتوسط موقعها ما بين الشام وبغداد كل تلك الصفات مجتمعة ساهمت في جذب انتباه الخليفة العباسي هارون الرشيد اليها ليعتبرها ويتخذها عاصمة ووطنا له بعدما اثقله جو بغداد السياسي بعد نكبة البرامكة .

اما ما شهدته الرقة في الفترة الاسلامية فنذكر ان معركة صفين الشهيرة جرت جنوبها وهي معركة الفتنة الكبرى بين جيش علي بن ابي طالب الخليفة الراشدي (رضي الله عنه) وجيش معاوية بن ابي سفيان والي الشام الطامع بالخلافة .

وهناك احداث اخرى منها على سبيل المثال ان صقر قريش عبد الرحمن الداخل عبر نهر الفرات من الرقة بعد ان شهد مقتل اخيه، اضافة الى احداث كثيرة لا تعد ولا تحصى.

وها هي الرقة اليوم هادئة وادعة تنام على اسرارها وما مر بها وكثير منه ما زالت اثاره وبقاياه قائمة.

وقد تسنى لنا ان نزور الضريح الفاره لعمار بن ياسر الذي استشهد في معركة صفين على يد قوات معاوية بن ابي سفيان.

المدينة واسعة وشأنها شأن المدن الفراتية الاخرى تمتد افقيا اكثر منه عموديا ولذا من النادر ان نجد فيها عمارات عالية، وكان فندق اللازورد الذي اقمنا فيه يتكون من اربعة طوابق مثلا.

اما الاغاني التي تتردد من الات التسجيل في السيارات والمحال فجلها اغان عراقية ومعظمها نواحات غناء البوذية الجنوبي الشهير وبأصوات جديدة معظمها خرج من اتون الحروب والحصارات والموت البطيء الذي عاشه البلد.

وساعد على انتشار الغناء هذا قرب اللهجتين في العراق والرقة وغيرها من مدن الفرات سواء كانت في الجانب السوري او الجانب العراقي.

في حياة الناس تعتمد الزراعة موردا بالدرجة الاولى، وزراعة الحبوب بشكل خاص، ثم تأتي بعدها التجارة. ولكنها غالبا في المواد المعيشية التي يحتاجها المرء.

لم اجد اشجار النخيل في الرقة، وسألت عنه، ويبدو انه ظل في حوض وادي الرافدين فقط.

وختاما نقول ان احتفاء الرقة بابنها د. عبد السلام العجيلي جاء في سياق تقاليد متوارثة تتمثل باحترام الرموز التي يجاوز دورها حدود المدن التي ينتمون لها فاصبحوا رموزا لوطن وامة.

ونشير بأن اول مجموعة قصصية صدرت للعجيلي كانت بعنوان بنت الساحرة في عام ١٩٤٨ وله ديوان شعري وحيد عنوانه الليالي والنجوم صدر عام ١٩٥١ والكتابان صدرا في بيروت التي ستبقى مستحوذة على اصدار ابرز مؤلفاته وبعدها دمشق.

ومن آخر اعماله الروائية اجملهن التي صدرت عام ٢٠٠١.

ومن بين مجاميعه القصصية التي يذكرها القراء والمتابعون بقوة: قناديل اشبيلية ١٩٥٦، الخيل والنساء ١٩٦٥.

اما من رواياته فنذكر: باسمة بين الدموع ١٩٥٩، المغمورون ١٩٧٩، و قلوب على الاسلاك ١٩٧٤، وهي روايته التي اعدت شخصيا اكتشاف مكانته الروائية، وبعد ان كتبت عنها بدأ بيننا تعارف ولكن بالمراسلات فقط.

د. العجيلي لم يهمل الدور السياسي الذي قام به ولذا اصدر كتابا في جزءين وعلى درجة بالغة من الاهمية هو ذكريات ايام السياسة والكتاب هذا هو من آخر إصداراته في بداية الألفية الثالثة.

عبد السلام العجيلي و(بصمة الساخرين)

سعد بن عايض العتيبي

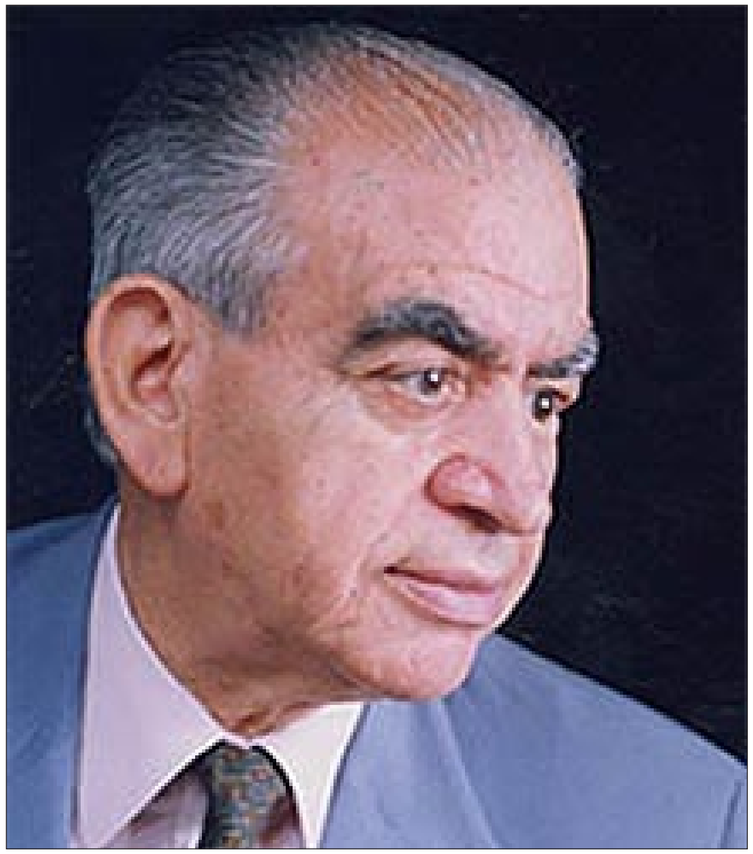

من الطريف أن الأستاذ عبد العزيز الرفاعي رحمه الله سبق أن وجه رسالة إلى صديقه الدكتور العجيلي عبر جريدة (الحياة) إثر تلقيه نسخة من كتاب (حفنة من الذكريات) يقول فيها: (شيء واحد ما أحببت له العلنية هو إنني كنتُ أود أن أسأل الصديق العجيلي: هل مارس السحر قط ضمن ممارساته الكثيرة المتنوعة؟ إذ خيل إلي انه لم يبق من مواهبه تبارك الله إلا أن يكون ضم إليها العلم بالسحر والتنجيم!)(١).

في هذا المقال لن أتحدث عن الدكتور العجيلي الشاعر، أو القاص، أو الروائي أو غير ذلك من الأجناس الأدبية التي مارسها وأبدع فيها، وإنما سأتحدث بإيجاز عن جانب مجهول في حياة العجيلي وهو انضمامه إلى (عصبة الساخرين) التي تأسست في أواخر الأربعينيات الميلادية وبالتحديد في تشرين الأول عام ١٩٤٨.

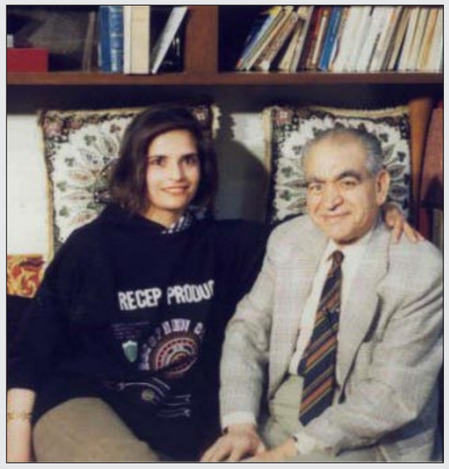

وكانت مكونة من اثني عشر عضواً هم على النحو التالي: عبد السلام العجيلي رئيساً للوزراء، سعيد الجزائري وزيراً للداخلية أحمد عسه وزيراً للخارجية، عباس الحامض وزيراً للمالية، ينسب الاختيار وزيراً للعدلية، أحمد علوش وزيراً للدفاع، سعيد القضماني وزيراً للمعارف، عبد الغني العطري وزيراً للزراعة، مواهب الكيالي وزيراً للصحة، ممتاز الركابي وزيراً للشؤون الإجتماعية، عبد الرحمن ابو قوس وزيراً للأشغال العامة، حسيب الكيالي وزيراً للاقتصاد. والملاحظ ان معظم الذين أشاروا إلى (عصبة الساخرين) قد وقعوا في بعض الأخطاء، أو ان معلوماتهم كانت تنقصها الدقة، بل إن بعضهم ذهب إلى ان (عصبة الساخرين) تأسست في الثلاثينيات!!

انضم الدكتور العجيلي إلى (عصبة الساخرين) في بداية تأسيسها، وهو الذي اختار لها هذا الاسم. يقول العجيلي عن ذكرياته عن تلك الحقبة (عصبة الساخرين) يعود أمرها إلى ٤٥ سنة كنتُ في ذلك الوقت عضواً في مجلس النواب ومن أصغر الأعضاء سناً، وكانت تربطني قبل أن آتي إلى دمشق كنائب في المجلس بعدد من الأدباء صلات وثيقة ترجع إلى أيام دراستي الطب في دمشق، وكنتُ التقي بهؤلاء الأدباء الشباب من سني في مقهى البرازيل بصورة خاصة، وفي ذلك اليوم فكر بعضهم وأغلبهم من الصحفيين في إنشاء جمعية أدبية قلت: نسميها (عصبة الساخرين) باعتبار اننا كنا نجتمع دوماً على الضحك والانتقادات الساخرة للسياسيين والكتاب) (٢).

كان الهدف من إنشاء (عصبة الساخرين) نشر إنتاج أعضائها في الدوريات مع ذكر انتسابهم إليها. وكان معظم الأعضاء يكتبون المقالات الضاحكة، وينظمون الأشعار الساخرة ومن ذلك قصيدة ساخرة للأستاذ حسيب كيالي (١٩٢١ ١٩٩٣) قالها في أحد النواب تقول بعض أبياتها:

أيهذا النائب الشهم الذي يدعى فلانا
لا أسميك فقد أطرح في السجن زمانا
هات خبرني لماذا حين تأتي البرلمانا
يسقط الرأس على الصدر وتغفو يا أخانا؟
ومن أسف ان (عصبة الساخرين) لم تعمر طويلاً لكنها أحدثت دوياً في الوسط الثقافي، وظلت تجاهد ببسالة في ميدان الصحافة والأدب حتى خرّت صريعة وهي في عمر الورد. وعن أسباب توقفها يقول الأستاذ عبد الغني العطري أحد أبرز اعضائها (كان عمر العصبة قصيراً كعمر الورد، إذ إن نشاط لولب العصبة، المرحوم سعيد الجزائري، فتر وبرد وأصيب بالصقيع، بعد أن بلغ درجة الغليان في فترة التأسيس. فقد كان في المرحلة الأولى يحث الأعضاء على النتاج والكتابة ليل نهار) (٣).

أمّا الدكتور العجيلي فهو يرى ان السنوات القليلة التي عاشتها العصبة كانت حافلة بالنتاج الساخر ومثيرة للجدل، ما لبثت أن تبددت تحت تبدل الظروف والأحوال، فتوقفت (عصبة الساخرين) عن النشاط) (٤).

بقي أن أقول ان جميع أعضاء (عصبة الساخرين) الاثني عشر قد انتقلوا إلى الرفيق الأعلى، ولم يبق منهم سوى أديبنا الكبير الدكتور عبد السلام العجيلي أمد الله في عمره المبارك، ونفعنا بعلمه الغزير، وأدبه الوفير، وهو الآن في السابعة والثمانين من عمره المديد بإذن الله.

وفي العامين الأخيرين تقاعد من عمله الطبي بعد أن ظل يمارس مهنة الطب لمدة ثمانية وخمسين عاماً منذ تخرجه في كلية الطب عام ١٩٤٥م. وذلك بسبب تقدمه في السن، وتعرضه لطائفة من الوعكات التي أنهكته وحدت من أسفاره وتحركاته بل حرمته من هوايته الأثيرة القراءة. يقول في إحدى رسائله الأخيرة (أرجو ألا يزعجك هذا الكلام مني، ولكن هذا هو الواقع. ولا سيما أن صحتي لم تعد على ما يرام فالوعكات تتابع عليّ، وهذا شيء طبيعي عند إنسان أصبح في السابعة والثمانين من عمره، ولو حسبت عمري بالتاريخ القمري كما يحسب في المملكة فأنا اليوم في التسعين) (٥).

أعتبر نفسي طبيباً، ووقتي مشغول كله بالطب، ولا سيما أنني أعيش في بلدتي "الرقة" على ضفاف الفرات حيث عدد الأطباء لا يزال قليلاً، كنت أشعر - ولا أزال - بضرورة معالجة الناس. لكن الأدب بهالته المتسعة وجاذبيته الأسرة يُغطي أحياناً على نشاطي الطبي... الأدب يأتي في المقام الثاني، وقد بدأت هاوياً، ولا أزال أعتبر نفسي أديباً هاوياً".

الهوامش:

(١) جريدة الحياة (لندن) ع ١٠٠٣٨، ٢٥ تموز (يوليو) ١٩٩٠م.

(٢) من حوار له مع مجلة الحوادث، ع ١٩٤٢م، ٢١١١٩٩٤م، ص ٥٥

(٣) عبد الغني العطري، دفاع عن الضحك، ط١، دمشق: دار البشائر، ١٤١٤هـ ١٩٩٣م، ص ١٧٧

(٤) من حوار له مع مجلة الحرس الوطني، ع (٢٧٤، ٢٧٥) صفر، ربيع الأول ١٤٢٦هـ آذار، نيسان ٢٠٠٥م، ص ١٠٣

(٥) من رسالة خاصة مؤرخة في ١٧٢ ٢٠٠٥م.

عن: الجزيرة الثقافية

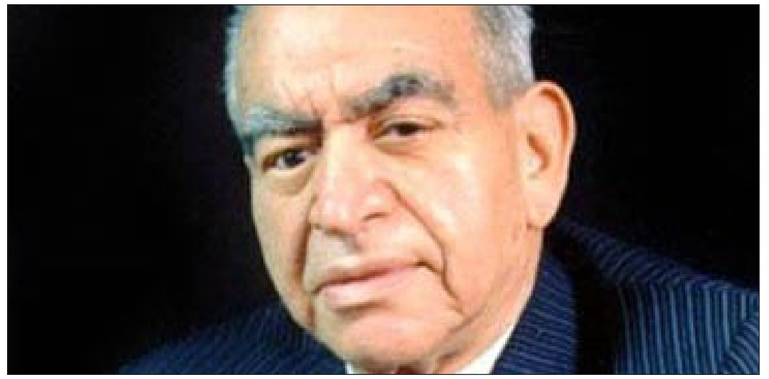

تعدّ قصة الدكتور عبد السلام العجيلي «العرّاف أو زقاق مسدود» واحدة من أعماله المركّبة، إذ يتداخل الواقعي بالعجائبي من ناحية، ومن ناحية أخرى يتزاوج الدرامي بالسردي للوصول إلى حالة تجريبية في الإبداع الأدبي في سعي المبدع إلى التأثير في المتلقي، ويصلح هذا العمل نقطة انطلاق للمقارنة مع قصصه الأخرى التي بنيت على المكوّنات الغرائبية أو العجائبية أوهما يشكّلان جانبا من بنيتها.
لا بدّ من توضيح المصطلح الذي يُتداول في ساحة النقد وهو: «الفنتازيا» ويقصد به جموح الخيال الإبداعي في القصّة أو الرواية، وذلك لإعطاء مدى واسعا للقدرة التعبيرية على حمل دلالات تحتشد في التجربة الإنسانية، ولإحداث الصدمة الممتزجة بالمتعة الجمالية لدى المتلقي، وكلّ هذا يؤديه مصطلحا: الغرائبي والعجائبي، ولا أرى ضرورة للتمسّك باللفظ الأجنبي، خاصّة أن مفهوم «الفنتازيا» ليس متّفقا على أبعاده، ولا يعني الناقد الالتزامَ بحرفية مصطلح وإنما الوصول إلى فسحة تفسير وتأويل للعمل الإبداعي في أدوات أساليبه و رؤيته.

د. فايز الداية

العراف لعبد السلام العجيلي توظيف العجائبي في السرد القصصي

في متابعتنا لمصطلح الخيال نجده يشير إلى جوهر عمل الأديب ويرتبط به فالمبدع لا ينقل الواقع المعاِيش ولا التاريخي، وإنما يختار بعضًا من مكوّناته ويعيد إلى الإضافة والحذف حتّى يخرج من طبيعة الخبر ويدخل دنيا القصّة، ويرتفع الخيال إلى أفق أعلى عندما يكسر المألوف ويلتقط الغرائبي، ثمّ يوغل في البعد مع العجائبي متجاوزًا المنطق والقوانين الأرضية فيأتي الخارق للطاقة الإنسانية، وتتشكّل عندئذ علاقات أخرى بين الشخصيّات وتتابع الأحداث.
هنا نلحظ دورة البحث عن سبل التعبير في أزمنة الأدب السرديّ العربيّ، فقديما كانت النصوص واقعية- سواء تلك الموروثة في الذاكرة الشعبية أو ما يؤلفه الكتّاب أو تلك التي لم تُعْرَف لكاتب محدّد- ، وكذلك هي تمزج الغرائبي والعجائبي بالواقعي،كتابات الجاحظ والمقامات و كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة...»، ومع تطور الأدب القصصي الفنّي الحديث فصل بين الأنواع ولم يعد مقبولاً التداخل والتمازج السحري البعيد على الأحداث الواقعية، ثم عاد يتعاظم مجدّدًا الميل إلى كسر الحاجز بين العوالم بعد أن غدا الحاضر الإنسانيّ عاجزًا في أوقات عن الاستجابة لأحلام تنتصر على الألم والبؤس، وتطلب الحرية التي أضاعوا ألوانها فغدت ملتبسة لا يُعْرف طريقها!!، وهنا يحتاج الموقف إلى إيضاح حضور العجائبي والغرائبي لدى بعض الأدباء العرب في العصر الحديث من مثل الدكتور العجيلي بدءاً من قصّته في المجموعة الأولى التي حملت اسمها:«بنت الساحرة /١٩٤٨»، و ما جاورها من «الحمى، المعجزة،النوبة القاتلة» ومرورا بـ«صدوع في النأي، ساعة الملازم» من المجموعة التي حملت اسم القصّة الثانية وصولاً إلى لون قصّ الخيال العلمي «كوكب الغيرة زيلوس» ونريد التأكيد على أن هذا الأسلوب المبكر هو حصيلة لثنائية في ثقافة العجيلي السردية: العربية القديمة وتلك المتفاعلة مع الدفق الغربي الذي عايشه في النصف الأول من القرن العشرين في توازٍ مع ثنائية إقامته على تخوم البادية الشامّيّة وبين مخابر كلية الطب في الجامعة السورية بدمشق،وقد نشر في الثلاثينيات أولى قصصه القصيرة «نومان» في مجلة «الرسالة» القاهرية.

نصّ مركّب ومفتوح

يوحي السارد/ المؤلّف في قصّة «العرّاف أو زقاق مسدود» أنه يبدأ عملاً مفتوحاً يشكّل شخصيّاته وأحداثه أمامنا، ويعقّب في الختام بتعليقات أتته من بعض الذين سمعوا ما رواه، أو ممن أتتهم الأصداء، وهكذا نجد نصّاً «هو الأساس/ الإطار» يصدر عن هذا السارد، وثمّة نصّ آخر«هو النصّ الداخلي الذي ميّز في المدوّنة المطبوعة بإشارة سيميائية وهي إخراجه بحروف من حجم مختلف عن النصّ الأساس» يتولّد منه يرويه سامي بك الذي يلعب دور العرّاف فيه، وهكذا تعدّد الجمهور المتلقّي فالأول متمثّل بمن كانوا حول سامي والجمهور الثاني هو من توجّه إليه السارد في أمسيّة أدبية ونلحظ ذلك بافتتاحيته: «سيداتي سادتي» التي بدأت بها القصّة والجمهور الثالث هو نحن الذين نقرأ المدوّنة في كتاب، وقد كان التقى في شخص واحد: المؤلّف العجيلي والسارد العارف الكلّيّ والمشارك الداخلي الذي جاور العرّاف في أواخر القصّة، وذلك كلّه تأثّراً بعمل مسرحيّ حداثيّ غريب هو «ستّ شخصيّات تبحث عن مؤلّف» للكاتب الإيطالي لويجي بيراندلو، وفيه تداخل بين عالمي الواقع والخيال إذ تفتّش ستّ شخصيّات تركها مؤلّفها عمّن يصوغها في المسرح مرسلاً من خلال تشكيله الدرامي وإخراجه رؤية للواقع وما فيه من اضطراب يعترض خطوات البشر، وقد اقتصر التناصّ بين العمل الدرامي والعمل السردي على الأفق التخييلي البعيد وهو ما أطلق عليه بيراندلو في مقدمته للمسرحية كلمة: «الفنتازيا»، وعلى الثنائية المتداخلة واستمداد بعض الملامح المسرحية، أما الحبكة والرؤية الاجتماعية فهما مختلفتان في «العرّاف» و«ستّ شخصيّات».
يختار السارد/ المؤلّف جانباً من المجتمع هو بيئة الأغنياء أصحاب الأموال والنفوذ والصفقات،وقد اجتمع عدد من المدعوّين في منزل فخم تختال السيدات بما يدل على الثراء ويلتفتن بحثاً عن المثير، ويغتنم الرجال الفرص لأحاديث المال أو ما يخفّف قيود النهار، ويبرز في هذا الحشد ثلاثة هم محور الحدث والعلاقات،ومن خلال الشبكة التي ينصبها السارد تتبيّن السمات النفسية والخطوط التي تتحرّك بينها، ونرقب تلاقيها أو احتمالات اصطدام عاصف، ولن نستبق نتائج التفاعل وإنما نستشرفها ،فهي تومئ إلى بعد تحليليّ نفسي وآخر فكري اجتماعي يزيّح سواتر عن مثل هذه الطبقة وقيمها الأخلاقية في المجتمع الحديث.
نحن نتابع صاحب الحفل والمنزل جلال الدين بك وزوجته سميحة والضيف المميّز سامي بك أما الدكتور عبد الرحمن فكان حضوره مساعداً وجاء دور زوجته عابرَ المشاركة ، ويرسم السارد - المؤلّف شخصيّة جلال الدين، فهي سيّئة على نحو يستثير الصراع الخفيّ بينه وبين زوجته، إنّه «وصوليّ مكيافيليّ ساديّ زير نساء، وهو رجل ناجح بالرغم من كلّ هذا»، وأما سميحة الزوجة فهي جميلة تزداد ألقاً بزينتها وهما ابتسامة فاتنة لم تستطع إخفاء كآبة في أعماقها، و وقف سامي الوسيم ابن هذه الطبقة وقد شارف على نهاية الشباب أعزب له دراية بالثقافة سواء تلك التي في الكتب والصحف أو ما تعلمه صفحات السفر في أرجاء الأرض، وتبلورت خصومته مع جلال الدين الزميل أو الصديق القديم خفية بعد أن أدرك أنه عندما أعلن للضيوف عن براعة سامي!! في قراءة الطالع إنما دعاه هذا المساء ليقدّم فقرة قراءة الفنجان كالمنجّمين.
قال في نفسه: «إذن فلمثل هذا دعاني هذا الخنزير إلى بيته... نمرة يسلّي بها مدعوّيه!..»، وتصاعدت في هذه البؤرة رغبة مزدوجة فهو أحسّ بميل إلى سميحة - خاصة أنها بدت مجاملة له - وكان سمع عنها، ورأى أنها لا تستحقّ هذا الجحود من زوج ينكّد عيشها مستهترا على نحو فجّ كأنما لا يكفيه ما يعيث في دنيا المال!
يتهيّأ سامي لخوض معركته لقهر هذا العابث جلال ولنيل المرأة التي أحاط به سحرُها وظلال أسرة منها، وستكون أدواته متناسبة مع هذا الوسط الاجتماعي ومن خلال ثقافته التي اجتمع فيها الظاهر من الكلمات و الباطن من الغيبيّات كما غدا معروفاً عنه،وستكون القصّة العجائبية التي سيرويها للحضور- ولواحدة بعينها هي سميحة- طلّقة ذكية لا تخيب، وسيعبّر هو نفسه الحبلَ السريّ بين الأجواء السحرية وواقع تدور فيه الوجوه بين الدهشة والارتياب والحذر.

السحّر والمرآة الحارقة

أمسك سامي بزمام الكلام بعد أن اعتذر للنسوة الجميلات وللحضور عن عدم استعداده النفسي لقراءة الفنجان أو الطالع، وأخذ يروي قصّة أو هي- كما يريد- ذكريات ما جرى وكان هو بعضاً من المشهد العجيب!
تقوم البنية العجائبية في هذه القصّة- الحكاية التي استحضرها سامي على ممارسة السحر بتعاويذ وكلمات مرصودة لها طاقات فوق بشرية، ومصحوبة بنشر البخور واستحضار وسيط ناقل للأسرار، والاستعانة بكائنات تبدو للفتى الوسيط في رؤية عبر قطرة الزيت، ويتحرّك هذا كله مخترقاً الأمكنة والزمان، وتأتي الذروة بتحقيق غاية كانت تستعصي في حضور النهار والوعي والإدراك بين الشخصيّات، ونجد أمامنا شخصيّات لا يصعب تبيّن تناظرها مع أبطال القصّة الأساس/ الإطار، فالشيخ رضوان في مرحلة لم يغادر شبابه صبوح المحيّا، وعارف بعلوم قديمة ممّا يدرسه المتفقّهون وكذلك ممّا تخفيه الأوراق والمجالس تضنّ بأسرار خفيّة تنفذ إلى دخائل البشر، وتربطه أواصر ودّ بأهل الحيّ وتأتيه النسوة باحثات عن أمل يعاند، وهو لا يخذل بما يظن أنّه حبل نجاة وخلاص، وهناك السيدة عالية الجميلة لا تزال تحمل رونق أيّام شباب لم يخبُ تعاني مشقّة عيش مع ابنتها وزوج يحمل قدرا من الشرّ عندما هجرها وابنته استجابة لأهوائه، وثمة الشخصيّة الرابطة وهي الفتى سامي ابن الثامنة أو التاسعة في دارهم القديمة يعتاد صحبة الشيخ رضوان وسيكون أداته لتحقيق السحر.
يستفيد السارد من القيم الدلالية مع تناظر الشخصيّات بين القصّتين فالرضوان سمة تحيط صاحبها بالإيجابية في داخله وفي المحيط حوله، والسيدة الجارة الجميلة بعيدة متمنّعة فهي لها مكانة عالية وابنتها تستحوذ على اهتمامها بسمة الدلال وقد غيّب اسم الزوج بنوع من دلالة إبعاده عن طريقه ،وهنا يتوالى في الواقع: العرّاف سامي وسميحة وزوجها جلال الدين، وتكون مشاركة الفتى الصغير سامي في الموقفين علامة التنوير للرغبة وإعلانها لمن تدرك وتستقبل الإشارة وهي السيدة سميحة.
أما الفعل السحري في الموقف فقد تجلّى في تتابع غامض، يطلب الشيخ رضوان من الفتى إحضار فنجان زيت من دار دلال ليعيد إليها أباها،وعند الفجر يقفل الباب مع وسيطه سامي، ويتعالى البخور وتستدير قطرة الزيت، وتتسع عالماً يضجّ بصور الطبيعة و العواصف، ويخرج من الأشجار شبح هو غصن الرمان يستجيب لطلب رضوان، ويمنح الفتى سلماً يبلغ عبره الغرفة التي تنام فيها عالية، ويتوالى توارٍ عجيب، فهذا الفتى ممسك بالقطرة بيدهُ أمام المجمرة ،وفي الوقت ذاته يجول في بيت السيدة عالية يصفها وهي نائمة،ثمّ ينقل دعوة رضوان لها بالحضور فإذا بها تطرق الباب وتدخل ليغيب الفتى الحمّى أسبوعا لا يدري عن عالمه شيئاً، وعندما يصحو يجد السيدة عالية مع أهله بجواره، ويعرف أنها لازمته هذه الأيّام، ونرقب التناظر والحركة على الأرض ومسار الأمور بين سامي وسميحة إثر هذه الرسالة العجائبية، وحسبما يحدّث هذا العرّاف الذي مدّ الحبال وأراد منها أن تتابع الخطو! بين الماضي وسطوة السحر إلى واقعه أنبأنا أنها اتصلت به ليحدّد موعد لقاء: «قالت إنها تريد أن تتأمل في قطرة زيت أضعها لها في يدها لتبصر ماذا تفعل تلك الفتاة التي علّق زوجها بها عليها تستطيع أن تعيد هذا الزوج إليها... إنها قادرة على أن توافيني إلى شقّتي التي تعرف أني أعيش فيها وحدي ،لتبرهن لي على ثقتها بقدرتي.. وبسلوكي»، قد يبدو تصرف السيدة سميحة محتملاً تحت تأثير عوامل الغيظ واللجوء إلى ما يتجاوز البصر البشري في حالة من القهر الاجتماعي،لكن إحجام سامي هو المفاجئ، ولذلك يزيل ما في النفس من دهشة بتتمة لتلك الحادثة السحرية البعيدة فيقول: وقبل أن تمضي أيّام لأميّز الحقيقة من الحلم فيما جرى إذا بنا نُسْمع ضجّة في الزقاق المسدود حيث البيت، فإذا بالسيدة عالية تموت محترقة بعد أن أشعلت النار بجسمها «لم أدعُ سميحة، لم أرد أن تأتي إليّ سميحة مجذوبة بسحر سحر شيطاني أو إنساني» وهنا نستطيع أن نفسّر سيميائية العنوان المزدوج الذي حملته القصّة: «العرّاف /زقاق مسدود»، فالجزء الأوّل: العرّاف يمثّل بدءاً للفعل المؤثّر في الآخرين وهو يذهب بعيداً في التاريخ الحضاري وإرثه المشعّ على وظيفة الساحر والعرّاف، وندرك أننا أمام صاحب الفعل المرسل، وعندما سنفتش عنه مع القراءة سنجده شخصية رئيسية يرسل طاقاته في أرجاء القصّتين، وأما الجزء الآخر: زقاق مسدود فيدلّ على نهاية شوط أو محاولة عبور ممّا يضطر سالكه إلى أن يعود أدراجه من حيث بدأ، فهنا نهاية لا يختارها ذاك السالك وإنما تُفْرَض عليه بترتيب قَبْليّ يعترض حركته أو تقدّمه في اتجاه ما، وهكذا يتهيّأ المتلقي مع هاتين الإشارتين، وكلما ظهرت نتائج تفاعُل العنوانُ مع تطورّ الأحداث أدرك المتلقّي على نحو مزدوج رسالة السارد ومن خلفه الكاتب العجيلي.

الدراميّة والثقافة أمام المتلقّي

ثمّة دائرة تنوير تباشر تأثيراً تضمّ الجمهور المتلقّي - حضور الحفل والمستمعون للسارد ومن بعدُ القرّاء الذين يطالعون المدوّنة في كتاب - في بؤرة مسار أراده سامي ولا يغيب أن سميحة هيّ الهدف الأوّل، و من ثمّ تهيمن حالة الدهشة والتهيّؤ على عالم الآخرين من الحاضرين جلسة الرواية في حفل جلال الدين بك في داره.
إنّ التداخل الأجناسيّ بين البنية السردية و الخصائص الدراميّة في قصّة: «العرّاف/زقاق مسدود» يقوم بمهامّ التمهيد و التأكيد لدور المادة العجائبية،ويقف وراءها السارد/المؤلّف، ذلك أنّ تناظراً لتلك الخصائص يبدو في القصّة الأساس/ الإطار و القصّة الداخلية:
- فهناك اختزال عدد الشخصيّات الفاعلة ففي الأولى :سامي وسميحة وجلال الدين مع صلة وصل لصديق هو الدكتور عبد الرحمن، وحوّل الساردُ مجموعة الضيوف إلى جمهور مسرحيّ يتابع الأحداث التي يرويها العرّاف، وفي الثانية: الشيخ رضوان وعالية والفتى سامي مع حضور كاشف ومقارن للبنت دلال.
- والبعد الدراميّ الثاني هو حصر الأمكنة لتبرز توتر العلاقة وحدّتها وتقابل الأطراف المشتبكة بالصراع «قاعة في منزل جلال الدين والغرفة التي يعيش فيها الشيخ رضوان بشكل أساسي وقد انتشر بين أرجائها البخور وغُلِق البابُ والنافذة».
- رسم صورة سامي/العرّاف حكواتياً مسرحيّا وذلك عبر مقدّمة يعرضها الدكتور عبد الرحمن بذكر براعته في كشف الأسرار حتّى سلّمت له عرّافتان غجريتان في باريس بتفوّقه، ومع مباشرته تتوزّع الأضواء كأنما هي خشبة عرض يرتبها مخرج بارع ويبرز حركة اليدين و الوجه لينفرد سامي- وهو يحكي - بالاهتمام وتتهيّا أخيلة الجمهور من حوله مطواعة بين كلماته «وتحت واحدة من هذه التحف وهي أباجور صيني ملوّن ومضلّع يبعث نوره في حزم متفرقة على ما دونه يجلس سامي وقد حفّت به أنظار الحاضرات والحاضرين .سيكون لانصباب حزم هذا النور على يدي سامي أو لحركة يدي سامي في مجرى نور هذه الحزم أثر كبير في أنفس المستمعين إليه... وهنا تنطفئ الثريّا الكبيرة التي تملأ البهو بأنوارها يطفئها من لا أعرفه، قد يكون أطفأها ربّ البيت عابثاً أو إحدى السيدات اللاتي سحرن بلهجة سامي وموضوع حديثه». ونحسّ بتوجيه إخراجيّ لدى السارد عندما يقدّم ما يحيط بسامي معمارا مسرحيّاً ينقل أجواء الحادثة السحرية: فالضوء خافت يترشّح ملوّنا من خلال جدران الأباجور الصيني كأنه ضوء سراج مغموم وأبخرة السيكار والسيكارات منعقدة غيوماً فوق رؤوس الحضور كأنها دخان مجمرة الشيخ وعطور النساء المتزيّجة برائحة القهوة وأنفاس المدخّنين كأنها رائحة البخور...
وجاءت نهاية الحادثة كما قدّمها سامي إسدالاً لستار المسرحيّة بدخول السيدة عالية بين أواخر الظلام وخيوط الضوء إلى رضوان وخروج الفتى إلى الزقاق تصحبه حمّى أقعدته.
وأما الجانب الثقافي الذي أشاعه السارد/ المؤلّف فهو استحضار أجواء علم النفس ، وضروب التحليل والعقد النفسية و الليبيدو مع اسم فرويد، وكذلك تردّد اسم نوستراداموس الطبيب والمنجّم الفرنسي الذي ألّف كتابه «العصور» في القرن السابع عشر تحمل طيّاته أسرار الدنيا في أزمنتها المتتابعة بعده!! وبهذا يكون السارد /المؤلّف قد ساق الحادثة العجائبية، وأحاطها بما يجعلها أكثر فاعلية، وفيما يبدو لقد أحكم حصاره بإطار تاريخي للنبوءة ورصد الأسرار، وبعرض المنجّز العصري الذي يفاجئنا بما يدهش من خفايا النفوس وتصرفاتها وأعماقها الغائبة وراء الظاهر... الخادع.

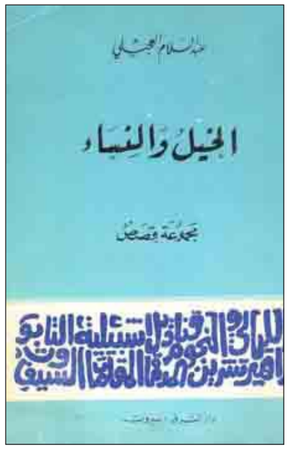

قال في نفسه: «إذن فلمثل هذا دعاني هذا الخنزير إلى بيته... نمرة يسلّي بها مدعوّيه!..»، وتصاعدت في هذه البؤرة رغبة مزدوجة فهو أحسّ بميل إلى سميحة - خاصة أنها بدت مجاملة له - وكان سمع عنها، ورأى أنها لا تستحقّ هذا الجحود من زوج ينكّد عيشها مستهترا على نحو فجّ كأنما لا يكفيه ما يعيث في دنيا المال!

أما الجانب الثقافي الذي أشاعه السارد/المؤلّف فهو استحضار أجواء علم النفس ، وضروب التحليل والعقد النفسية و الليبيدو مع اسم فرويد، وكذلك تردّد اسم نوستراداموس الطبيب والمنجّم الفرنسي الذي ألّف كتابه «العصور» في القرن السابع عشر تحمل طيّاته أسرار الدنيا في أزمنتها المتتابعة بعده!! وبهذا يكون السارد /المؤلّف قد ساق الحادثة العجائبية،

عبد السلام العجيلي: الإبداع لا يحتاج إلى تفرغ

الروائي الكبير الدكتور عبد السلام العجيلي في السادسة والثمانين من عمره. وقد صدر له أكثر من أربعين كتاباً في مختلف فنون الأدب، في القصة، والرواية، والشعر، والمقامة والمسرح، والرحلات... عدا مؤلفاته الطبية في مجال تخصصه. وقد حظي إنتاجه بالثناء والتقدير، وترجمت معظم أعماله إلى بعض اللغات الأجنبية مثل: الإنكليزية، والفرنسية، والإيطالية، والأسبانية، والروسية. وتقديراً لعطائه الثر وتاريخه الطويل. قلّد موخراً في حفل كبير وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة. وبهذه المناسبة السعيدة كان لنا معه هذا اللقاء.

أجرى الحوار: أ. سعد بن عايض العتيبي

×كتبت بأكثر من عشرين اسماً مستعاراً، ترى ما السبب الذي دفعك إلى التخفي وراء الاسم المستعار، أهو الخوف من التعرض للنقد أم عدم الثقة بالنفس؟

– همي الأول فيما أكتبه هو التعبير عن الأحاسيس والأفكار، ثم عرضها للآخرين بنشرها في إحدى الدوريات لإشراكهم بما أحس وأفكر. لا يهمني أن أعرف كمعبّر عما أعرضه، بل إني أنفر من أن يشار إليّ بالبنان.

يضاف إلى هذا، أو أن سبب هذا، حياء مفرط كنت أتسم به منذ الصغر وانطوائية على نفسي ما زالت تلازمني حتى اليوم. لم يكن في الأمر خوف من الانتقاد، ولا كنت قليل الثقة بالنفس بل إن الثقة بالنفس كانت تملؤني منذ الصغر وتجعلني دوماً أقيس قيمة الآخرين بنسبتهم إلى تقييمي لنفسي.

×هل تختلف طبيعة الأحداث في قصصك القصيرة عن رواياتك؟

– القصة القصيرة عندي، وعند كثيرين غيري، الأحداث فيها محدودة، كما أن الزمان والمكان فيهما ليسا واسعين. حدث واحد تدور عليه القصة لتصل إلى نهايته فيها. أما الرواية فأحداثها كثيرة ومتشعبة وإن كان فيها الرئيس والمهم ومنها ما هو هامشي أو قليل البروز. هذا عدا التوسع في الزمان والمكان. من ناحية أخرى أنا أستخدم القصة القصيرة لأعرض فيها أفكاراً وأنسج أخيلة كثيراً ما تكون غير واقعية. كتبت قصصاً قصيرة من الخيال العلمي، وقصص "فانتازيا" مبنية على الخيال المحض، وقصصا تدور على أفكار علمية غير مألوفة. أمّا رواياتي فهي تنتمي إلى الجنس الواقعي في أحداثها. قد تكون الأحداث فيها متخيلة بعضاً أو كلاً، ولكنها أحداث إذا لم تكن قد وقعت فعلاً فإنها قابلة لأن تقع في الحياة كما أصفها أو قريباً مما أصفها.

×صدرت لك مجموعة شعرية وحيدة بعنوان "الليالي والنجوم" ثم توقفت عن نظم الشعر. هل سبق أن نظمت شيئاً من الموشحات؟

– لم أتوقف عن نظم الشعر بعد صدور ديواني "الليالي والنجوم" وإنما لم أصدر ديواناً ثانياً يحتوي على قصائد نظمت بعد صدور ذلك الديوان.

ونشرتُ في الدوريات بعض تلك القصائد التالية، واحتفظت لنفسي بقصائد كثيرة لم تنشر ولم أقرأها إلا على القلة من أصحابي. وتتهيأ دار رياض الريس للنشر في بيروت لإصدار أعمالي الكاملة. وقد سلمتُ الدار الجزء الأول من تلك الأعمال، وهو يضم الديوان الأول وديواناً آخر عنوانه "أهواء" وقصائد كثيرة متنوعة تؤلف الجزء الأول من الأعمال الكاملة. أما عن الموشحات فلم أتعمد نظم شيء منها، في الديوان وفي قصائدي غير المنشورة مقطوعات تتألف من فقرات متماثلة، لا يمكنني اعتبارها موشحات، ولكنها تختلف بعض الشيء عن القصائد الكلاسيكية المعهودة في طريقة نظمها وتماثل فقراتها.

×كتبت في شبابك الأول مسرحية قصيرة بعنوان "أبو العلاء المعري" هلا حدثتنا عن هذا الجانب؟

– كان ذلك في عام ١٩٣٧م في أيام دراستي الثانوية. أعلن سامي الكيالي أديب حلب وصاحب مجلة الحديث، في مجلته عن مسابقة لكتابة مسرحية عن أبي العلاء المعري. جائزة الفائز فيها خمس وعشرون ليرة سورية في ذلك الحين، وهي تعادل اليوم نحواً من عشرين ألف ليرة سورية. كتبت أنا تلك المسرحية ووضعت تحتها اسماً مستعاراً هو "المقنّع" وتبين أن الفائز في تلك المسابقة هو "المقنّع" فتقدمت باسمي الصريح لنيل الجائزة. وحدث أن سامي الكيالي سأل صديقه ابن عمي الأستاذ عبد الوهاب العجيلي عمّن يكون عبد السلام العجيلي الفائز بالمسابقة، فأعلمه صديقه بأني مجرد طالب لم ينل الشهادة الثانوية بعد! استكثر سامي أن ينال الطالب الصغير ذلك المبلغ الكبير، فكتب في مجلته أنه سيهدي الطالب النجيب الفائز الأول في المسابقة اشتراك المجلة لمدة سنة كاملة! لم أحصل على المبلغ ولم يصلني عدد واحد من المجلة التي وعد بأنه سيهديني إياها. وهذا ما جعل رأيي من الوجهة المسلكية سيئاً بسامي الكيالي، على صفاته الجيدة الكثيرة، وانعكس على معاملتي له حين أصبحت في ذات يوم وزيراً للثقافة وهو رئيس المركز الثقافي في حلب، تابع لوزارتي آنذاك!

بالطبع لم أفاتحه بهذا الأمر في يوم ما، وإنما أقول ذلك مازحاً. وقد اكتشف الأستاذ وليد إخلاصي هذه المسرحية في أعداد مجلة "الحديث" القديمة فأعاد نشرها في مجلة "الحياة المسرحية" التي تصدرها وزارة الثقافة السورية، وحين أعود إليها أجد أنها صالحة كل الصلاح لتمثل اليوم على المسرح ولاسيما حين يستعان في إخراجها بالأساليب الضوئية والصوتية الحديثة.

×كنت من مؤسسي "عصبة الساخرين" حبّذا لو حدثتنا عن نشأتها، وأهدافها، ومن أبرزُ أعضائها؟

– في أواخر الأربعينيات كنا في دمشق ثلة من الشباب الأدباء والصحفيين وأنا منهم عضو في المجلس النيابي، أصغر الأعضاء في ذلك المجلس سناً. كانت السخرية هي منطلق نشاطنا الأدبي المكتوب والشفهي. خطر لأحدنا وهو الصحفي سعيد الجزائري، أن نؤلف جمعية أدبية محدودة عدد الأعضاء، تتولى نشر إنتاج أعضائها في الدوريات مع ذكر انتسابنا إليها. اقترحت أن نبعد في التسمية عن الأدب والثقافة لكثرة ما سميت بها الروابط والمنتديات والجمعيات، واقترحت أن نسميها "عصبة الساخرين" نظراً لأهمية السخرية فيما نكتبه ونقوله، وهكذا كان. كنا اثني عشر عضوا، لم نقبل زيادة على هذا العدد رغم كثرة الراغبين في الانتساب إليها. وسموني أنا رئيساً لوزارة العصبة، وهي تسمية وهمية ليست لها أي صلاحية أو سلطة. وكان من أبرز الساخرين فيها: سعيد الجزائري، وحسيب كيالي وأخوه مواهب من إبلب، وعبد الرحمن أبو قوس من حلب، وسعيد القضماني وممتاز الركابي... وكان من بين الأعضاء من كانت سخريتهم محدودة مثل أحمد عسة، وأحمد علوش. لم يكن لهم برنامج عمل ولا مقر لاجتماعاتهم. أكثر الاجتماعات كانت في مجلة "الدنيا" للصحفي عبد الغني العطري، وفي المقاهي التي يتردد عليها الأدباء مثل مقهى البرازيل. استمررنا بالكتابة مضيفين إلى أسمائنا في "عصبة الساخرين" سنوات قليلة ولكنها كانت حافلة بالنتاج الساخر ومثيرة للجدل،

> لست وحدي المعجب بالمتنبي فالمعجبون به على طول الأزمنة والعصور كثيرون. وقد ألفّت في سر هذا الإعجاب كتب كثيرة، وكتبت مقالات كثيرة لا يمكنني أن أزيد عليها شيئاً أو أردد ذكرها. بدأت في صباي قراءة الشعراء الجاهليين من المعلقات وما بعدها، ولم أهتد إلى المتنبي إلا متأخراً، بعد أن جاوزت العشرين من العمر. فوجدته يتفوق على كل من كنت أعجب بهم قبله.

ثم ما لبثنا أن تبدلنا تحت تبدل الظروف والأحوال، فتوقفت "عصبة الساخرين" عن النشاط.

×ما سر إعجابك بأبي الطيب المتنبي؟ وهل ما زال أثيراً عندك؟

– لست وحدي المعجب بالمتنبي فالمعجبون به على طول الأزمنة والعصور كثيرون. وقد ألفت في سر هذا الإعجاب كتب كثيرة، وكتبت مقالات كثيرة لا يمكنني أن أزيد عليها شيئاً أو أردد ذكرها. بدأت في صباي قراءة الشعراء الجاهليين من المعلقات وما بعدها، ولم أهتد إلى المتنبي إلا متأخراً، بعد أن جاوزت العشرين من العمر، فوجدته يتفوق على كل من كنت أعجب بهم قبله. قدرته على الاهتداء إلى الفكرة أو إلى الإحساس كبيرة، وقدرته على تكثيف هذا أو ذاك في كلمات قليلة كبيرة أيضاً. عدا عن حسن تعبيره وجمال نظمه. على أن هذا الإعجاب بالمتنبي ليس مطلقاً عندي، فأنا أعرف عيوبه، سواء عيوبه المسلكيه في تذلله لمن لا يستحق التذلل وتنازله عن كبريائه في سبيل مكاسبه المادية، أو عيوبه الفنية في غموض بعض معانيه وتعقيد نظمه أحياناً وخشونة مفرداته. إلاّ أنه سيبقى المقدم على غيره من الشعراء، يحسن الكلام حتى في مبالغته في المديح أو في مبالغته في الهجاء أو في مبالغاته الكثيرة الأخرى.

×الأحداث الدامية التي يمر بها العراق حالياً، ألم توح إليك بكتابة رواية جديدة مثلما فعلت في حرب تشرين عندما كتبت رواية "أزاهير تشرين المدماة"؟

– أنا أنفر من الكلام على كوارثنا بأقوال لا تتعدى البكاء والندب والنحيب. ليس لدي إمكانيات لدفع الشر عن العراق وفلسطين دفعاً عملياً. فالكلام عن هذا الشر كلام موجه إلينا وحدنا، لا يرضيني. أما "أزاهير تشرين المدماة" فقد كنت كتبتها بتكليف وإلحاح لتكون رواية لفيلم عن حرب تشرين، لم أشارك في تلك الحرب، ولكني زرت الجبهات التي دار فيها القتال وقابلت المحاربين واستمعت إلى حكاياتهم عن أفعالهم فتأثرت وكتبت الرواية التي لم يقدر لها أن تتحول إلى فيلم سينمائي لظروف معينة. لو كان بيدي أن أشارك مشاركة فعلية المعذبين والمضطهدين والمناضلين في العراق، ولو بأبسط الطرق. لكان ذلك أجدى فيما أعتقد من ألف صحيفة تكتب عن هؤلاء المعذبين والمضطهدين والمناضلين.

×ربطتك صداقة بالشاعر الكبير بدوي الجبل... ما تقييمك لشعره؟ وهل صحيح ما يقال إنه نسج بعض أبيات شوقي نسخاً يكاد يكون كاملاً؟

– بدوي الجبل شاعر كبير حقاً، ملهم ومتمكن، ووائق من نفسه ومعتدّ بها ولا يقبل أن يقلد أحداً من الشعراء الآخرين مهما بلغ إعجابه بذلك الشاعر الآخر، ولكن بعض النقاد ولا سيما المغرضون منهم، يجدون في ورود كلمات أو تعابير في شعر البدوي مماثلة لتعابير أو كلمات واردة في شعر شوقي دليلاً على تقليد ذاك لهذا، يكفي أن تكون قافية لشوقي كلمة "ترمق" وقافيه للبدوي بالكلمة نفسها، ليعد أحد النقاد أن هذا تقليد أو نسخ من البدوي لشعر شوقي، كأن هذه الكلمة ملك لشوقي لا يجوز لغيره أن يستعملها. هذا جور كبير على البدوي هو منزه عنه ولا يضر عبقريته بشيء.

×هل تعتقد أن التفرغ أو الاحتراف للأديب أو للشاعر يحقق الإبداع أو الابتكار؟

– الأمر متعلق بالموهبة، فالموهوب يبدع سواء كان منشغلاً باهتمامات غير أدبه أو متفرغاً. ربما أعطى التفرغ مزيداً من الوقت لإنجاز الأديب ما يريد إنجازه، لكنه ليس العامل الأول في الإبداع أو الابتكار.

×صدرت مؤخراً الطبعة الثانية من كتابك "المقامات" عن وزارة الثقافة السورية، لماذا لم تعرض الطبعة الأولى للبيع مع أنها كانت طبعة فاخرة؟

– "المقامات" التي نشرت طبعتها الثانية بعد أكثر من أربعين سنة من صدور طبعتها الأولى هي في عُرْفي أدب "إخوانيات" تدور مواضيعها على مداعبات بيني وبين أصدقائي صغتها على شكل المقامات. نشرتها في طبعتها الأولى وأهديتها لأصدقائي ومعارفي لأني لم أكن أجد أن من لا يعرفونني ويعرفون أصدقائي يجدون فيها ما يهمهم أو يعجبهم. وكنت حريصا على أن يكون أمرها محصوراً بيني وبين هؤلاء الأصدقاء والمعارف، ولكن مسؤولين في وزارة الثقافة قدروا أن لها أهميتها فأصدروها في طبعتها الثانية دون أن أسعى أنا إلى ذلك الإصدار، بل أقول إني تمنعت عليهم في أول الأمر.

×بحكم صداقتك للفيلسوف الراحل الدكتور عبدالرحمن بدوي، هل صحيح أنه عاد إلى الإسلام في آخر حياته وتبرأ من الوجودية؟ وهل اطلعت على كتابيه "في الدفاع عن القرآن ضد منتقديه" و "دفاع عن محمد –صلى الله عليه وسلم– ضد المنتقصين من قدره"؟

– صداقتي للدكتور البدوي –رحمه الله– صداقة شخصية لا تعتمد على القضايا الأدبية أو الفكرية. قرأت له بعض كتبه قبل أن أتعرف على شخصه. وآخر ما قرأت له مذكراته في جزأين ضخمين بعد وفاته. أما الكتابان اللذان ذكرتهما فلم أقرأهما، وقرأت في الصحف عن دفاعه عن الإسلام والقرآن في آخر حياته، ولم يكن في أحاديثنا الشخصية مبتعداً عن الإسلام أو معلناً انتقاداً له. فلا أظن من الصواب القول إنه كان ملحداً ثم عاد إلى الإيمان، إلا أن قراءاته الكثيرة للمستشرقين وبعضهم معاد للإسلام دفعته إلى الدفاع في آخر حياته عنّ القيم الإسلامية.

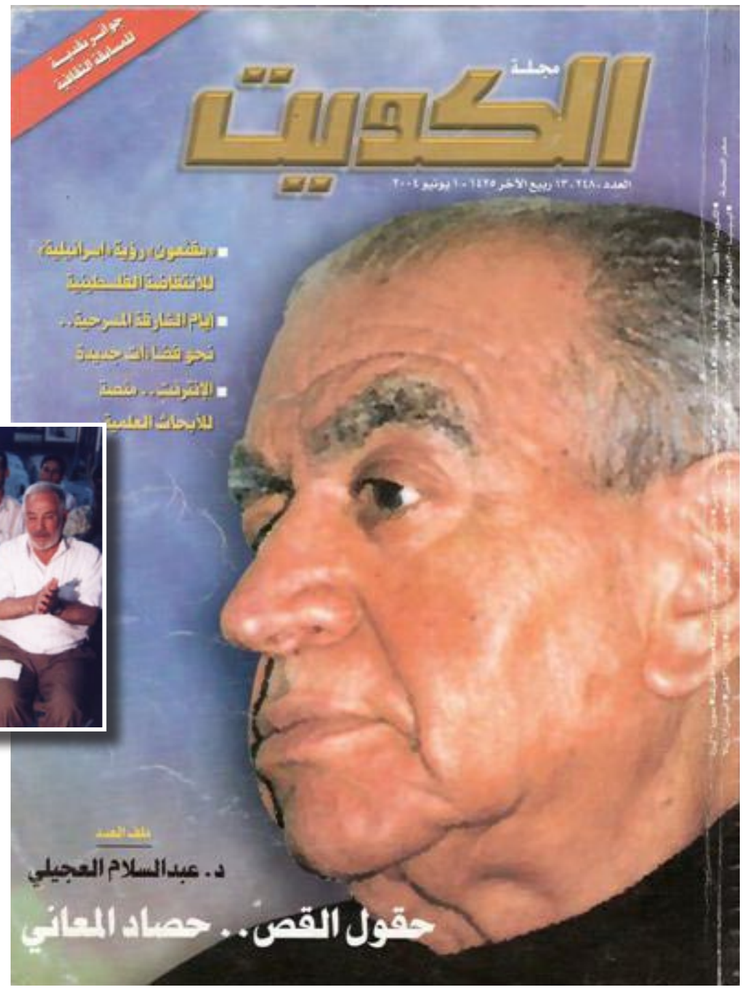

فن الرواية القصيرة «النوفيلا» في تجربة

الـدكـتـور عـبـد الـسـلام الـعـجـيـلي

تتعدد منابع التفرد في التجربة الأدبية للمبدع عبد السلام العجيلي ، الذي عرفه القراء والنقاد بقصصه ورواياته وبحكايات أسفاره ورحلاته ، وبكتابته المتميزة لفن المقالة . .وإذا كانت أعماله المبكرة ، وبوجه خاص؛ باسمة بين الدموع ، وبنت الساحرة قد بلغت مدى بعيداً من الانتشار ، فإن سائر أعماله اللاحقة تخبئ كثيراً من كنوزها ، وماتزال تصلح للدرس والقراءة ، طلباً لمحاورة تجربة تمتلك أفق اختلافها ، وليس من المبالغة في شيء حين نقول ؛ إن الاستاذ العجيلي نسيج وحده ، في لغته المتأنقة التي تذكرك برصانة الكتاب الأفذاذ من مثل الجاحظ وابن المقفع والتوحيدي وأضرابهم.

د. محمد عبيد الله

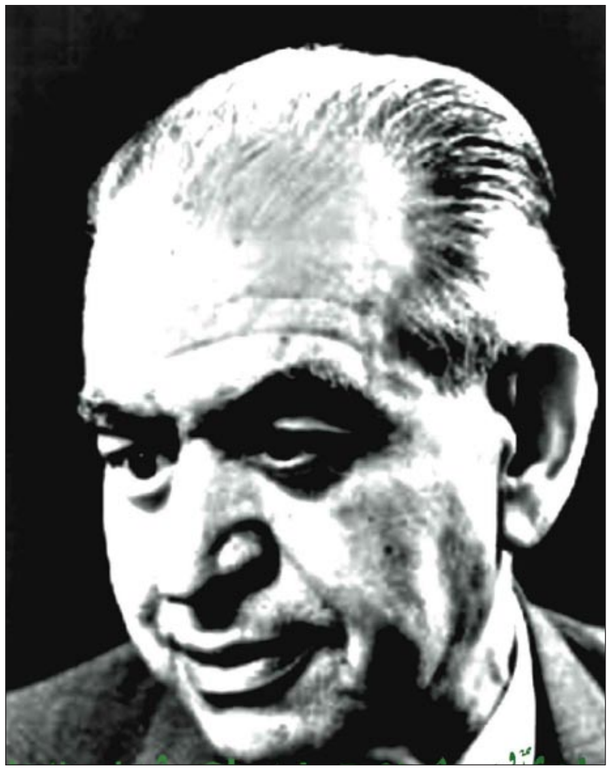

والعجيب أنه يعبر بتلك اللغة العالية عن قضايا معاصرة حيوية ، فيبث الحياة في لغته وموضوعاته معاً ومن دون أن تبدو تلك اللغة قاموسية أو مصطنعة .. إنها لغة حية ، لأن صاحبها يحس بها ، ولايفتعلها أو يفرضها على قارئه من موقع الاستعراض اللغوي ...اللغة عند العجيلي تحتاج الى دراسة أسلوبية خاصة . تكشف سر العلاقة بين الأديب ولغته وتقرب علم الأسلوب من لغة القصة والرواية .

كذلك يلفتنا عند العجيلي فرادة المناخ وخصوصية التجربة ، فقد طوّع الفنون السردية للتعبير عن تجارب دقيقة صعبة ، مستمدة من محيطه وبيئته الفريدة ، ومن ثقافته العلمية والأدبية ، ومن رؤيته التي تجمع بين الايمان بالعلم والثقة بالأدب وأخيلته ورؤاه .. وهو يذكر بتلك السلالة من الأدباء الذين قدموا الى الأدب والسرد من حقول العلم فأضافوا اليه وشكلوا علامات كبرى يصعب تجاوزها:

تشيخوف ومویاسان ، ويوسف إدريس وإبراهيم ناجي وعلي محمود طه وغيرهم .

ربما حدّ الأدب عند العجيلي من اطلاق العلم ، وثقته المفرطة في القرن العشرين ، أي أنه أسهم في تعديل الرؤية نحو الحيرة والقلق ، مما يعد منبعاً للإبداع الأدبي ، العلم وحده بصيغته الواثقة المطمئنة ، هو صيغة مناهضة لقلق الأدب ونفاده نحو المجهول والغامض ، وقد كان العجيلي محقاً في دفاعه عن موقفه المتأرجح بين الأدب والعلم يقول:

«ليس كمثلي إنسان يؤمن بالعلم ، لكنني أعرف ،أكثر من غيري ، أن العلم ليس شيئاً محدوداً ، قد بلغنا في العصر الحاضر حدوده ، ولم تبق مجاهيل في العالم حولنا.الواقع أن الانسان قد قطع شوطاً كبيراً في معرفة نفسه ومعرفة سلوكه ، لكن ماعرفه لا يزال قليلاً جداً ، وضئيلاً أمام المغيبات عن معرفته . حين أبيّن عجز العلم عن ادراك قضية ما ، وأشرح ذلك في قصة لي ، فهذا لايعني أني أطعن بقيمة العلم ، لكني أريد أن ألفت النظر الى أن هناك مجاهيل لم يبلغها علمنا ، وأن علينا أن نستمر في البحث ، لندرك حقيقة هذه المجاهيل ».

القصة الطويلة .. الرواية

القصيرة:

في مجموعته المعنونة بـ(مجهولة على الطريق) نجد عبارة تجنيسية واضحة على الغلاف تصف مكونات الكتاب بأنها لقصص قصيرة وطويلة) وإذا كان الجزء الأول من العبارة (قصص قصيرة) يبدو واضحاً في دلالته على نوع محدد من الانتاج السردي فإن (قصص طويلة) يبدو أقل وضوحاً ، فهل يشير الى وصف لطول القصة بمعنى أنها قصة أولاً ، لكن حجمها طويل ، مقابل قصير في النوع الأول ، فالفرق هنا فرق في الحجم أو عدد الكلمات والصفحات .. أم أن تسمية (قصة طويلة) تشير الى نوع سردي مختلف عن (القصة القصيرة) وعن أنوع أخرى ، وخصوصاً نوع (الرواية) التي كانت تسمى ، أو سميت أحياناً (قصة طويلة) في صورة اختلاط عشوائي في التسميات ، وهو اختلاط يتجاوز في التجربة العربية ، مجرد الأسماء ، الى تشويش في فهم طبيعة الأنواع الأدبية ، وتجنيسها وتمييزها .

نحن إذن أمام ثلاث تسميات :

– قصة قصيرة

– قصة طويلة

– رواية

القصة الطويلة ، نفهمها على أنها التسمية المقترحة لتقابل مصطلح (Na vella) الذي يشير الى نوع سردي بيني ، له ارتباط بالقصة القصيرة ، وله نسب في الرواية ، فكأنه خليط أو مزيج من النوعين ، في صورة من صور تداخل الأجناس وتمازج عناصرها ، بحيث يؤد ي هذا التداخل الى نشوء أنواع جديدة .. وربما هذا مايشيع تسمية أخرى هي : الرواية القصيرة ، لكن على مايبدو فإن «النوفيلا» قد تنشأ من القصة القصيرة التي تتوسع وتتجاوز حدود القصة القصيرة ، دون أن تبلغ حدود النوع الروائي ، وقد تنشأ في حالة ثانية من الرواية التي تتطلع الى القصة القصيرة في اختزالها واجتزائها وفي طبيعة تعاملها مع مكوناتها مما يعطيها شيئاً من سمات القصة القصيرة ، ولو أمكن من ناحية نظرية تحتاج الى توكيد نصّي لاقترحنا نوعين متمايزين :

– القصة الطويلة ، ويمكن اطلاقها على العمل ذي الارتباط بالقصة القصيرة ، أو القصة القصيرة عندما ترنو الى بعض سمات الرواية .

– الرواية القصيرة ، ويمكن اطلاقها على العمل ذي المنبع الروائي ، مع الميل الى عناصر أو تطلعات القصة القصيرة .

فالنوع الأدبي لايتضمن تحديدات نهائية حاسمة ، وإنما يظل قابلاً للتهجين ، وماظاهرة القصة الطويلة الروائية القصيرة إلا مثالاً من أمثلة حركية الأنواع الأدبية ، وذلك عندما تنهض بعض النصوص الأدبية بزحزحة مفهوم النوع وحدوده ،مما يقتضي تأملات أجناسية جديدة .

وإذا ما عدنا لعمل عبدالسلام العجيلي(مجهولة على الطريق) فسنجد ثلاث قصص يمكن أن تعد مثالاً لما نعنيه ونتحدث عنه بخصوص النوع الثالث المغاير للقصة القصيرة وللرواية معاً وهي التي تحمل العناوين التالية:

– الضحية، من ص ٩ – ٦٤ .

– الحاج، من ص ٩١ – ١٥٥ .

– مجهولة على الطريق، من ص ٢٣٥ – ٢٧٠ .

وتستوقفنا القصص الثلاث بعدد صفحاتها أو حجمها الذي يتجاوز ماهو متعارف عليه في حجم القصة القصيرة ولكن ما نريده هنا أن نتجاوز المظهر الكمي إلى الجوهر النوعي الذي يجعل هذه القصص في نوع ثالث هو (النوفيلا) بحيث يختلف عن القصة القصيرة وعن الرواية ، رغم أنه يأخذ من مكونات النوعين عبر ماسبق اليه الاشارة من امكانات التهجين وامكانات التنويع على الانواع والاجناس.

قصة الضحية:

هناك أولاً اهداء بخط بارز أسود إلى يسار العنوان (إلى م.م، في ذكرى غيابها) وهو مع العنوان يفتح أفق التلقي على غياب /موت/ فقدان وما يرتبط بهذه المعاني عندما يغدو النص الادبي سبيلاً لاستعادة ماهو غائب أو أنه يحاول تجديد حياة ما عبر استعادتها، وحضور النص هنا بديل لحالة الغياب وتعويض عنها. وهذا ما نجده في قصة (الضحية) التي تتجزأ إلى أقسام بأرقام متسلسلة (من ١– ٩) وهذا التقسيم مبدئيا مظهر من مظاهر الاختزال والضغط ، إنه تجزئة لبنية روائية محتملة واجهاض للاستطراد السردي المتوقع ، فالتقسيم يدفع للتكثيف خصوصاً مع الحجم المحدود لكل قسم.

في القسم (١) نتعرف على المهندس ماجد يعقوب وتضعنا القصة في الجو المرتبط بها دون تمهيد بل في سطور قليلة وفي القسم أو المقطع نفسه نكاد نعرف معظم الشخصيات التي تحضرفي القصة وخصوصاً ماجد يعقوب ومي الشخصية الغائبة التي تبدو مركز القصة كلها.

أما الراوي فهو الراوي العليم أو كلي المعرفة ، لا يقطع حضوره إلا الحوار الذي يبدو من منظوره أيضاً عبر حضور (قال/قلت) أي الارتباط بمنظور هذا الراوي وحضوره.

«كعادته في زياراته السالفة ارتقى المهندس ماجد يعقوب الدرج الضيق المظلم في أول المساء مسرعاً، كفاه كانتا مدسوستين في جيبه يمسك بهما العلبتين المتماثلتين في الشكل المختلفتين في الحجم.

ستكون زيارته بعد غياب ثلاثة شهور عن المدينة مفاجأة لاشك ولكنه قال في نفسه: لا بأس لن تزعج هذه المفاجأة احداً. وضغط جرس الباب ، فانفتح دون تأخير ، طالعه في فتحة الباب وجه سهام الصغيرة بين الأختين الشابتين ، فهتف قائلاً:

– مساء الخير.

ودخل.

لم يسمع رداً على التحية كانت أم عارف تجلس على الكنبة المقابلة للباب فلم تقم للقائه بل ظلت في جلستها ساكنة ساكتة.. (وبعد رصد لملامح التغير المريبة في المكان) يقول: مساء الخير أين مي؟ (يتكرر عدم الرد) ويتكرر السؤال: أسأل عن مي، اين هي ؟ (وهنا يأتي صوت أم عارف): مي اعطتك عمرها.. ماتت.

على هذا النحو تبدأ القصة من غياب موت مي، وتتولد من هذا الغياب ، عبرما تستعيده ذاكرة ماجد يعقوب من صور متقطعة متتابعة تمثل مسلسل تعرّفه على الفتاة وعلاقته بها . أي أن القصة في صفحاتها التالية ليست أكثر من استنكارات مجمعة في الذاكرة ، تحاول أن تفسر النهاية التي بدأت بها القصة ، وهكذا تسيطر البنية الاستنكارية الدائرية على شكل القصة ، وتمنع من أي توسعات وإضاءات ذات طبيعية روائية ، لصالح الشعاع القصصي ،الذي يضيء قطاعاً محدوداً كافياً لبناء القصة ..وحتى ماأشارت إليه القصة من (خطة السهم الأصفر) التي توحي بالخطورة ، وتومئ أن تسرب المعلومات الى الفتاة هو السبب في مقتلها فهي ضحية مافيات أو جماعات لاتريد أن ينكشف عملها أو نشاطها ، وهذه الخطة لم ترد في مركز القصة، بل في صورة موارية جزئية وظل التركيز على ميّ وعلاقتها الشخصية مع ماجد يعقوب المهندس والمسؤول المرموق السابق ، وكل مقطع أو مشهد جديد يعرض ذكري أو موقف لقاء أو خطوة في هذه العلاقة ، وصولاً الى استداراة القصة أخيراً الى مابدأت به من موت ميّ ، ومحاولة فهمه ضمن تسلسل مراحل العلاقة وتقليبها على وجوهها .

وبرغم الطول النسبي للقصة ، فإن عدد الشخصيات قليل، والأحداث مختزلة مكثفة محصورة في دائرة العلاقة مع الفتاة، وماعداه ذلك يمر عرضاً أو موارباً، فلا نعرف عنها ولا عن أسرتها أو عن الراوي أو عن خطيبها أكثر من تلك الومضات المحدودة والمحكومة بعلاقة مي بالمهندس ماجد ويمكن القول بأن منظور القصة القصيرة ظل حاضراً ، وأسهم في السيطرة على مادة واسعة كان من الصعب تنظيمها دون مبدأ الذاكرة الانتقائية التي تستعيد ما تحب وتنفي مالا تحب ، فهذا المنظور يتيح الاختيار ، ويسمح للراوي بالبعد عن التفصيل والتعقيد وتشبيك العلاقات ، لنظل أمام فكرة القصة التعليلية الدائرية في انضباطها الشكلي المحكم ، رغم طولها النسبي . ويمكن القول بأن هذه القصة الطويلة تنتسب الى منظور القصة القصيرة من ناحية التقنية والأداء السردي . أكثرمن منظور الرواية وهو ما يشير الى أحد أنماط القصة الطويلة ،مما يمكن إعادته الى القصّة القصيرة .

قصة الحاج

قصة الحاج هي قصته سفر وترحل ، مبنية في أربعة عشر مقطعاً أوقسماً ، فظاهرة التقسيم تتكرر هنا ، إضافة الى استخدام تقنية شكلية تتمثل في طباعة النص بخطين مختلفين ، ومن خلال الإبراز الطباعي يتكون المستوى الثاني ، وتغدو قصة في مستويين ، أو طبقتين ، واحدة تأخذ الزمن الحاضر (بالنسبة للقصة) واخرى هي قصة الذاكرة التي تبدو محركاً للقصة الظاهرة المرهنة .

في المقطع الأول ، يبدأ العجيلي سرده الاستئنافي بحوار أو حديث بين صديقين تجاوزا الستين ، الحاج سليما ن ، وأكرم كلاهما يبدوان في استقرار مادي ، ومعيشي ، بل إن أكرم يحمل دكتوراه في العلوم الفيزيائية ، وتنفتح القصة على اقتراح ينتمي لمنطقة الطمأنينة ، عندما يدعو الحاج سليمان صاحبه أكرم الى مرافقته في رحلة الحج الى مكة ، ويبدو أكرم غير معني كثيراً بمثل هذه الدعوة ، ولكن ملامحه تبدأ في التغير ، حين يسمع باسم العقبة ، التي سيمر بها في رحلة الحج المفترضة ، المهم أن العجيلي يستدرجنا حتى ننسى الرحلة الأساسية ، رحلة الطمأنينة والاستقرار . وتسير القصة في مسار الرحلة ، من سورية الى الاردن باتجاه الجنوب ليمرا بالبتراء وفق اشتراطات اكرم ، ومن خلالها تنفتح القصة على صندوق الذكريات ، حيث يستعيد رحلته الاولى الى البتراء ويتذكر الفتاة ليلى التي رافقته وكانت شعلة من الحماس والتعلق بالبتراء حتى يبلغ بها التعلق حدود الغياب أو التبدد في البتراء فلا يعثر لها اكرم على أثر .

تتكون القصة من هاتين الطبقتين ، طبقة للرحلة المستعادة ، المرتبطة بضياع ليلى في البتراء وطبقة الرحلة الجديدة التي ظاهرها الحج لكن جوهرها استعادة ليلى في البتراء إذ يقصد اكرم الاماكن نفسها وفي المكان الذي ضاعت فيه فتاته يجد امرأة بدوية رأى مثلها في رحلته الاولى ، وقرأت له حظه واستوقفته بحديثها الشعري لكن البدوية الجديدة بعينين خضروا ين أي بملامح ليلى وهكذا تتحول من المستوى الواقعي الى المستوى العجائبي ونحس بالتردد والحيرة مثلما يحس أكرم فهل يعقل ان ليلى مازالت على قيد الحياة ؟ هل سرقتها البتراء ؟ فأقامت فيها وغدت من المولعين بها ؟ هل نسيت حياتها السابقة وانتمت كل هذه السنوات الى حياة مغايرة ؟ هل هو وهم اكرم لشدة تعلقه واستذكاره للغائبة ؟ كل هذا مما تفكر فيه القصة وتحوله الى مركز السرد وهو الذي كان في البدايات موضوعاً هامشياً واستراحة على طريق الحج .

ويغدو للحج معنى جديد إنه الحج الى بتراء الانباط ، المدينة الساحرة الغريبة ، وبين الحاضر والماضي يكون الافق متاحاً لتولد الاسطورة من جديد ، وليتراجع دور العلم أو يتعطل أمام ظواهر غريبة لا يمكنه تفسيرها ..

تذكرنا هذه النوفيلا بوصفها قصة رحلة الى مكان من اماكن الماضي بقصة بهاء طاهر (أنا الملك جئت) فاكرم يشبه من بعض الوجوه بطل (أنا الملك جئت) الذي تعلم في الغرب واضاع ماري التي دخلت ما يشبه الجنون ثم يقوم برحلة نحو الصحراء بحثاً عن معبد أو ماشابه من الآثار الفرعونية وهناك يتجدد وجه الغائبة وكذلك تذكرنا قصة الحاج للعجيلي بقصة للكاتب الاردني جمال أبو حمدان (شرق الشمس غرب القمر) وهي أيضاً قصة عن البتراء وعن سحرها وغرابتها لابالمعنى السياحي بل بالمعنى الوجودي .. حيث للبتراء عشاقها الغريبون مثلها ويبلغ بهم الوجد حداً من الامحاء في المدينة كما لو كانوا يحملون ارواحاً من زمن ابعد واشقى .وكأننا أمام بنية خاصة فريدة تجدد في منظورها للماضي الماثل ، وتعلمنا قراءة الاماكن التي تقاوم النسيان ..

عندما يلتقي اكرم بالبدوية ساكنة البتراء تقول له : اشتر مني هذه الفلوس ، عملة الناس الاولين ملكات الزمان القديم وملوكهم أما سمعت بملوك البتراء الكبار : العبادة و الحارث والريبال ، مثلما تقول له : اسمع مني ولا تسأل لاتريد ان تشتري هذه الفلوس ؟تعال أقرأ لك حظك في الرمل قامتك مثل الريح ، والبنت التي تريدها وتريدك ، مثل الرمح قامتها لكن ..»

لم يتخل العجيلي عن العربية الفصيحة في هذا الحوار لكنه اقترب من لهجة المرأة من خلال اختيارات تركيبية وتعبيرية معينة تنتمي للفصيحة ولكنها تذكرك بالنبرة المحكية من خلال التركيب ومنظورالشخصية أو طريقتها الخاصة في التعبير وهذا الحوار نفسه يتكرر مرتين ، ولكنه في المرة الثانية يخرج من الواقعي الى العجائبي عندما تتماهى ليلى في صورة البدوية كما اشرنا .

أما ما يسهم في تماسك المبنى السردي وفي اختزال القصة فيمكن رده الى الاعتماد على فعالية الذاكرة والتأرجح المتقن بين زمنين واستخدام الحوار الذي يفسر ويتمم حديث الذكريات ليس هناك احداث كثيرة .. رحلة وصديقان يتوقفان عند البتراء لكن برغم بساطة الفكرة فإن تحويلها الى فكرة تتساءل عن المكان الزمان وتنهل من سحر الانباط اسهم في تعميقها وفي نقلها الى مستويات من القلق ومفارقة الطمأنينة.

تنتهي القصة باعتذار أكرم لصديقه لأنه حرف المسار المطمئن واشركه في قلقه ومشاعره السوداء ثم تستمر الرحلة جنوباً نحو العقبة أي انها تظل نهاية مفتوحة لتمثل رحلة الانسان وضربه في المجهول ... وهي رحلة مفتوحة على وجوه من التأويل والتفسير .

قدمت هذه الدراسة في مهرجان العجيلي الأول للرواية في الرقة.

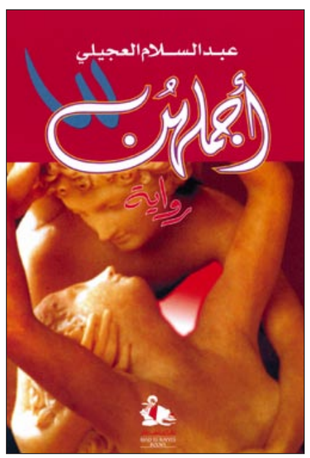

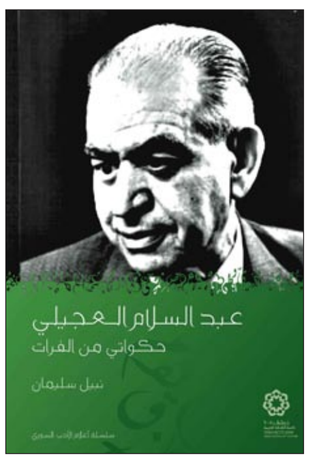

قراءة في كتاب «أشياء شخصية»

للدكتور عبد السلام العجيلي

هذه هي الطبعة الثالثة من كتاب "أشياء شخصية" للدكتور عبد السلام العجيلي، يقول في مقدمتها: "هذه الطبعة ليست صورة مكررة من الطبعة الأولى القليلة في صفحاتها، ولا من الطبعة الثانية المزيدة، ولكنها تشبه أن تكون كتابا جديدا. إنها كتاب جديد، لأن ما احتوته من حوارات ومقابلات ضاعف حجم الكتاب في طبعتيه الأوليين، أو جعله يتجاوز الضعف، هذا مع أني لم أثبت فيه إلا القليل مما تحدثت فيه عن أشيائي الشخصية" كما سميتها عندما أعددت طبعتها الأولى، مكتفيا بهذا القليل من عشرات المقابلات والمحاورات الأخرى"(١).

أ.د. حسين علي محمد

ويضم الكتاب في طبعته الثالثة تسعة وعشرين لقاءً ومحاضرة، يعود أقدمها إلى عام ١٩٦٥م (حوار مع ياسين رفاعية نُشر في جريدة "النهار" البيروتية (٢)، وآخرها كلمة أُلقيت في بيلفور بفرنسا في عام ١٩٩٩م (٣).

وتضم هذه الحوارات الكثير من المحاور التي تتناول حياة العجيلي الأديب والطبيب والإنسان، ومواقفه الاجتماعية، ورؤاه السياسية، واعترافاته الذاتية .. ممّا يجعله كتابا لا غنى عنه لمن يريد دراسة هذا الكاتب الكبير، والتعرُّف على عالمه الإبداعي.

لكننا نجد في الكتاب أربعة محاور، من العسير أن يتجاهلها قارئ الكتاب، لأنها تتردد بكثرة في أكثر من حوار ومُحاضرة، نشير إليها في هذا العرض إشارات سريعة:

١-من القومية إلى الإنسانية

في كثير من الحوارات يُشير العجيلي إلى حبه العرب وتعلقه بهم، ومع هذا فهو لا يحمل نزْوعا عدوانيا نحو الآخرين. يقول له الدكتور محيي الدين صبحي: "على علاوة ما تعرض من أحاسيس العربي في مواجهة الأقوام الأخرى، منطلقا من منظور قومي أو عرقي، هناك ناحية تلفت النظر، وهي فقدان الصدام بين المنظور العربي والمنظور الأوربي. هذا الصدام نجده أحيانا مدمرا عند توفيق الحكيم، ونجده أحيانا عابثا في رواية الدكتور سهيل إدريس "الحي اللاتيني" مثلا، هناك تساوق وتعايش في روايتك ... ليس هناك مأساة باللقاء العرقي، مع ما يبدو من أن المأساة تكون في الصدام الحضاري، فهل هذه الملاحظة واردة في نظركم؟".

فيُجيبه:

"هذا صحيح. الواقع إنني على تعلقي بقوميتي، وعلى حبي لقومي، لستُ شوفينيا، أنا محب للإنسانية، وأعتبر نفسي ..كعربي .. جزءا من الإنسانية. ليس لي مأخذ عرقية، وليس لي التعصب الشوفيني ضد الآخرين. أحب قومي لأنني منهم، وأحب الآخرين لأنني منهم كذلك ... ليس لديّ أو لدى أبطالي حقد حتى إذا حلت بهم المصائب"(٤).

٢-بين الطب والأدب

يُمارس الدكتور عبد السلام العجيلي مهنة الطب منذ أكثر من خمسين عاما، وتأخذ مهنته منه وقتا طويلا. يقول: "أعترف أني أعمل عشرين ساعة يوميا، فالمرضى لا ينتظرون، ولا يبقى لي كي أكتب سوى النزر اليسير من الوقت، وللقراءة بالتالي وقت أقل"(٥).

ورغم شهرته في الأدب لم يترك مهنة الطب، مما جعل بعض محاوريه يسألونه لماذا لم يتفرّغ للأدب، فكانت إجابته التي تكررت في بعض المحاورات:

"كثيراً ما أُردِّد كلمة تشيخوف على من يسألني هذا السؤال، حين قال: "الطب زوجتي والأدب عشيقتي"، وهو ما يعنيّ أن الطب هو الواجب والمستقر، بينما الأدب هو المتعة واللذة النفسية. وأضيف للذين يُطالبونني بالتوقف عن ممارسة الطب لأتفرّغ للأدب: إنكم بهذا تفضلون متعكم الشخصية على الوفاء بحاجة من يحتاجون إلى خدماتي الطبية، هذا من ناحية. ثم ماذا تريدون مني أكثر من إنتاج خمس روايات كبيرة وثلاث عشرة مجموعة قصصية وخمس مجموعات من المحاضرات، وثلاثة كتب على هامش نشاطي الطبي، وثلاثة كتب عن أسفاري، وغير هذا من الكتب المتنوعة؟ ثم إن قيمة الأديب لا تُقاس بالكثرة، فديوان المتنبي يفوق قيمة أبي العلاء المعري الذي أَلَف عشرات الكتب، و"أزهار الشر" لبودلير أكثر أهمية من كتب فيكتور هوجو التي تملأ الرفوف"(٦).

وحينما يسأله سائل سؤالا مستفزّا عن الأدب والطب: أيهما يحتل المكانة الأولى في حياته، وأيهما يحتل المكانة الثانية، لا يجد مفرا من الإجابة:

"أعتبر نفسي طبيبا، ووقتي مشغول كله بالطب، ولا سيما أنني أعيش في بلدتي "الرقة" على ضفاف الفرات حيث عدد الأطباء لا يزال قليلا، كنت أشعر ..ولا أزال .بضرورة مُعالجة الناس، لكن الأدب بهالته المتسعة وجاذبيته الأسرة يُغطي أحيانا على نشاطي الطبي ... الأدب يأتي في المقام الثاني، وقد بدأتُ هاويا، ولا أزال أعتبر نفسي أديبا هاويا"(٧).

٣-العزلة المستحيلة

يرى الدكتور عبد السلام العجيلي أنه "في عصرنا الحاضر تكاد تكون مستحيلة عزلة المثقف في برجه العاجي، منصرفا إلى لذائذ المعرفة أو إلى متعة الإبداع الفني؛ فالقضايا العامة من محلية وقومية وإنسانية تنفذ إليه مع خبزه اليومي. والمثقف العربي ..مثل كل مثقف في العالم ..مسوق إلى الاهتمام بالقضايا الكبيرة، وباتخاذ موقف منها" (٨).

واتخاذ موقف يعني أن للكاتب دوراً سياسيا، ومن ثم أصبح الكاتبُ سياسياً، لا يُمكنه أن يبتعد عن السياسة، حتى لو أراد. يقول: "في عصور سابقة كان يمكن لأي إنسان أن يبقى بعيدا عن السياسة، لبساطة الحياة وقلة التواصل بين الناس، ولكن السياسة في العصر الحاضر أصبحت طبيعة ثانية لكل إنسان، والأديب مضطر أن يكون سياسيا من قريب أو بعيد ... وبهذا يكون عليه أن يعي دوره وأن يقدر إمكاناته ويؤدي واجبا. عليه بألا تكون كتاباته لمجرد الإبداع والتسلية، بل أن ينتهزها وسيلة ويسلكها طريقة لإفادة الآخرين، بفتح عيونهم على ما ينالهم من ظلم أو ما يتهددهم من مخاطر أو على ما يكون سبيلا لتحسين عيشهم"(٩).

٤-استقلاله السياسي

يشير العجيلي في كثير من مواضع الكتاب إلى ارتباط الحرية الشخصية للأديب أو المفكر بالاستقلال عن المؤسسات الحزبية: "أنا حريص قدر الإمكان على حريتي الشخصية، وإذا كنت لم أنتسب إلى حزب سياسي، وابتعدت عن كل منظمة فكرية أو ثقافية ... فذلك حرصاً مني على أن لا يحد انتسابي إلى أي مؤسسة من حريتي"(١٠).

وبرغم أنه تبوّأ منصب الوزارة، إلا أنه ظل حريصاً على استقلاله السياسي، وعلى عدم الانتماء إلى حزب من الأحزاب. يقول:

"إن تجربتي السياسية والنوع الذي مارست فيه هذه التجربة يتلاءم مع أسلوبي في التعبير ومعتقدي في التفكير، عملت نائبا، وحكمت وزيرا، وكتبتُ في السياسة من دون أن أنتزم بمذهب سياسي معين، وإنما كنتُ أعتقد أن لكل مذهب سياسي في الغالب ناحية تتفق مع المثل الأعلى، وأنا آخذ بها، وأتجنب نقاط الضعف في ذلك المذهب"(١١).

ويرى في التحزب عدواناً على الحرية الشخصية التي يحرص عليها، يقول في موضع آخر:

"لقد نفرت من التقولب، أعني في صب نفسي في قالب جاهز من صنعي أنا أو من صنع غيري، كما حرصتُ دوما على حريتي الشخصية في التفكير، مثل حرصي عليها في السلوك" (١٢).

٥-حس ساخر

والدكتور عبد السلام العجيلي يكشف في "أشيائه الشخصية" عن حس ساخر في هذه الحوارات حيث يفسر اهتمام البعض بإجراء حوارات معه على النحو التالي: "لستُ الوحيد في التعرض إلى أسئلة ... مثلي في هذا مثل الرياضي الذي يكسر رقما قياسيا، وبائع الحمص الذي يربح ورقة يانصيب، والفائز بجائزة نوبل، والمتسنم منصبا سياسيا كبيرا، والبائس الذي يفقد زوجته وأطفاله في انهيار سقف المنزل عليهم. كلهم عرضة لمثل هذه الأسئلة التي تُرضي غرورهم أول الأمر، أو تشغلهم عن بؤسهم بعض الوقت، ثم لا تلبث حتى تنقلب، إذا جاوزت حدّها، جحيماً يُضاعف البؤس، ويُنغص الفوز"(١٣).

×××

(١) د. عبد السلام العجيلي: أشياء شخصية، ط٣، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق ٢٠٠٠م، ص٥.
(٢) السابق، ص ص٩-٢٤.
(٣) السابق، ص ص٢٤٣-٢٤٦.
(٤) السابق، ص١١٠.
(٥) السابق، ص١٣٣.
(٦) السابق، ص٢٤٠.
(٧) السابق، ص٢١٥.
(٨) السابق، ص٥١.
(٩) السابق، ص٨٩.
(١٠) السابق، ص٢١٦، ٢١٧.
(١١) السابق، ص٦٠، ٦١.
(١٢) السابق، ص٧٥.
(١٣) السابق، ص٧.

قناديل إشبيلية لعبد السلام العجيلي: استيلاد حكاية من حكاية بسحر وبلاغة في القص

رشاد أبوشاور

قرأت له قبل أن ألتقيه في بيت شاعر فلسطين الكبير عبد الكريم الكرمي (أبوسلمى)، وكانا صديقين حميمين.

أول رواية قرأتها له هي (باسمة بين الدموع)، بعد أن قرأت دراسةً عنها، كتبها الناقد المصري غالي شكري، وكان ذلك قبل أزيد من أربعين سنة، وفي الذاكرة رسخت مشاهد من تلك الرواية، وأجوائها، وشخصياتها...

ثم تعرفت على الدكتورعبد السلام العجيلي قاصا، وشغفت بقصصه القصيرة، واحترمته لوفائه لمنطقته وأهلها، وخدمته لهم كطبيب وكاتب مشهور، وشخصية اجتماعية ووطنية معروفة في سورية، كان بامكانه الانتقال الى المدينة والعيش فيها حياة رغد، وسعة عيش، ولكنه جسد شخصية المثقف الأصيل بعلاقته بالناس البسطاء الفقراء، أغنياء النفوس والحياة.

من يقرأ للعجيلي كتاب (عيادة في الريف) سيطلع على طرافة حياته، وبساطتها، وجمالها ونبلها، في ريف مدينة (الرقة)، وعلاقاته الانسانية مع مرضاه الفقراء الذين كانوا يحضرون له (الجبن) و(الدجاج) و(البيض) كهدايا تقديرا لعلاجه لهم، هم الذين لا يملكون المال للكشفيات، وثمنا للدواء.

منذ بداية علاقتي بالقصة القصيرة كان العجيلي أحد الذين توقفت عند قصصهم، وما زلت، واستمتعت بقراءتها، وأجوائها الواقعية، وسردها اللطيف الحيوي، وقدرة القاص على اجتذاب انتباه القارئ، وامتاعه بسرد قصص جميلة وعميقة...

أذكر أن صديقي الشاعر فواز عيد أحضر لي قصة قصيرة للعجيلي مطبوعة في بضع صفحات، كانت مقررة في الجامعة على قسم الأدب العربي، وعنوانها (النهر سلطان)، وطلب مني قراءتها، ثم لما أعدتها له في اليوم التالي، أخذ يثني علي عناصر جمالها، وعمقها الانساني، وهي قصة تدور حول فيضان نهر الفرات في ثورة عارمة ياما اكتسحت البيوت، والناس، والحيوانات... في تلك القصة يلتقت الأب وراءه فلا يجد ابنه، لأن مياه النهر ابتلعته...

النهر السلطان..وهو في فيضانه سلطان غاشم، وان جلب الخير مع مياهه، وأخصب السهول المجاورة بما يحمله من طمي..فرض قانونه الذي لا يرد...

أود لفت انتباه القراء الى انني أكتب من الذاكرة بعد سنوات كثيرة مرت على قراءتي لتلك القصة، إذا جاوزت حدّها، جحيماً يُضاعف البؤس، ويُنغص الفوز"(١٣).

×××

(١) د. عبد السلام العجيلي: أشياء شخصية، ط٣، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق ٢٠٠٠م، ص٥.
(٢) السابق، ص ص٩-٢٤.
(٣) السابق، ص ص٢٤٣-٢٤٦.
(٤) السابق، ص١١٠.
(٥) السابق، ص١٣٣.
(٦) السابق، ص٢٤٠.
(٧) السابق، ص٢١٥.
(٨) السابق، ص٥١.
(٩) السابق، ص٨٩.
(١٠) السابق، ص٢١٦، ٢١٧.
(١١) السابق، ص٦٠، ٦١.
(١٢) السابق، ص٧٥.
(١٣) السابق، ص٧.

جذاب:

قال البروفيسور ألسيدو .بهذا قدمته الي الراقصة الساحرة العينين .وهو يفرغ الكأس الأولي في جوفه:

.هل تحتقر ابن عمك اذا كلمك بغير لغته ؟ لقد سمعتك تتكلم الفرنسية بطلاقة، فاسمح لي أن أحادثك بها.

فأومأت برأسي موافقاً، وموطناً النفس علي سماع حديث هذا الطفيلي الي نهايته... قال: .رأيتك امتعضت من دعابة هيأسنتا . انها دعابة تجرح، ولكنك لست المقصود بها يا ابن العم . كانت سهماً مسدداً الي، لولا أن جلدي أصبح في غلظ جلد التمساح. ومع ذلك فان لهيأسنتا عينين تشفعان لها في كل ذنب تأتيه .

من هو ألسيدو هذا؟ ومن هي الراقصة؟ ومن هو الراوي الذي يقص علينا حكاية ألسيدو، وحكايته هو؟

تسأل الراقصة (الراوي):

.من أين السيد اذن؟

بعد أن ينفي أنه برتغالي، أو ايطالي، فيجيبها:

.عربي.

.عربي من مراكش؟

.بل عربي من المشرق.

تلتقت الى مائدة قريبة، كانت شبه مختفية وراء احدي شجيرات الورد في حديقة الملهي، وتصيح:

.ألسيدو ! هذا السيد عربي جاء مثلك يبحث عن ملك أجداده...

يخبرنا الراوي:

وكانت هذه هي الدعابة التي امتعضت منها، والتي جاءت بالبروفيسور ألسيدو الي مائدتي...

الشخوص، المكان، الحدث، يمزجها القاص كلها، ويقدمها في الصفحتين الأوليين، فماذا يبقي ليمتع، ويشد؟

الكثير، فالقصة، وحكمتها، وفلسفتها، وحبكتها، لا تكتمل الأ مع الخاتمة، ولا أقول النهاية، لأن النهاية في مثل هذه القصة هي بداية بالنسبة للقارئ الذكي، الذي يبحث عن المتعة العقلية، وليس التسلية وتزجية الوقت.

مكان القصة مدينة اشبيلية، وتحديداً كازينو شبيلية، حيث أراد الراوي قضاء بعض الوقت، فالتقي بهذا الشخص العربي، الذي تتعرف به كلما مضينا مع القصة في التفاصيل...

يقص علينا الراوي:

فتطلعت الى ألسيدو من جديد، أتفحص وجهه وهيئته . يجوز أن يكون هذا الشاب عربي الأصل، فما اكثر الملامح العربية في الأندلس . وكأنه قرأ أفكاري، اذ لم يلبث أن نطق لدهشتي بالاللغة العربية في لهجة مغربية قائلاً:

.هل كنت تظنني اسبانياً؟ معك الحق. من الذي ينتظر أن يرى عربياً في كاسينو اشبيلية ! أنا نفسي ما كنت أتصور هذا..

يسأل الراوي وقد انتشي، ووجد من يفضفض له:

.ألا تريد أن أقص عليك حكاية ملك أجدادي؟

قلت وعلى شفتي ابتسامة هازئة:

.قصة ملك أجدادك؟

فخيل الى أن عينيه غامتا، وأن شيئاً من الكمد قد طغي علي ألق نظرته، وحسبت أني جرحته بلهجتي الساخرة، حتي لوددت أن أعتذر اليه.

نحن اذن لسنا في حضرة شخص فضولي، أو نصاب، فالحكاية فيها ما يجلب الحزن، والكمد، وكلما تقدمنا اكتشفنا أنها حكاية جدية الى حد السخرية المرة، والضحك المبلل بالدموع...

يسأل:

.هل سمعت شيئاً عن مفاتيح العودة؟

قلت:

.أي شيء هي هذي المفاتيح؟

انها المفاتيح التي حملها العرب الأندلسيون، عندما أجبروا على الرحيل عن بلاد ولدوا فيها، وأسسوا ممالك، وبنوا، وأشادوا...

يخبر ألسيدو الراوي عن تلك المفاتيح التي ما زال بعضها معلقا في مداخل بيوت المدينة المغربية (مكناس)، متشبثين بحلم وأمل العودة الى وطن أسلافهم!.

السيدو هو السيد (بوقلادة)، غامر بالمجيء الى اشبيلية، واذ دخل احدى حاراتها في ليلة مقمرة، مضى بين بيوت بمشربيات، وأبواب كأنها تدعو المارة لعبورها.

القاص كأنما يقص علينا أجواء ألف ليلة وليلة، يسحرنا بلسان (ألسيدو) أو السيد بوقلادة، العربي المغربي الموسر، الذي ضاع في اشبيلية وهو يتوهم بأنه التقي ببيت أسلافه، أولئك الذين ابتنوا بيتا في مكناس شبيها ببيتهم الأندلسي الذي هيئ (لبوقلادة) أنه وجده في اشبيلية.

الوصف في قصة (قناديل اشبيلية) ليس وصفاً خارجياً، سواء وصف ملامح الشخصيات، أو المكان، أو الأجواء، بل هو وصف يقحمك في علاقة تماهي مع كل شيء حتي لتشعر بالرهبة من جمال، وسحر، وسطوة المكان، والروح التي تسري فيه .

في البيت الإشبيلي المسحور يلتقي (بوقلادة) بطيف امرأة تبدو كأنها بين الواقع والخيال، ولكنه يتيقن من واقعيتها بتردده على المكان، وهي لا تسمعه سوى كلمة واحدة، هي ذوب الروح، وضوء القمر، وخفيف الشجر : (مانيانا)، والكلمة اسبانية ومعناها (بكرة) أو غدا، وان رأي ألسيدو أنها أجمل وأكثر ايحاءً من كلمة غدا العربية .

اندمج الراوي مع حكاية (بوقلادة) العربي الذي وجد بيتا هو شبيه البيت الذي تركه أسلافه قبل خمسمائة سنة، والذي احتفظوا بمفاتحه في صدر بيتهم المغربي، مغروسا في مسقط الضوء، رغم تناسي الأجيال المتعاقبة له، ولما يمثل .

يستخدم العجيلي أسلوب القص العربي في ألف ليلة وليلة، فيستولد الحكاية من الحكاية :

(لم أستطع أن أنام ليلتي تلك . ان الرغبة التي أخرجتني من بلدي وبلغت بي الأندلس كانت رغبة مقنعة بألف قناع سقطت كلها حين وجدت نفسي في القاعة المثمنة . لم يكن صحيحاً أني كنت شاباً وارثاً أراد أن يسري عن نفسه في اللهو ومتع السياحة) .

(..أم كان كل الذي رأيته وهماً ترشح الى ذهني مما قرأته في ألف ليلة وليلة، من حكايات اذا طلع عليها الصباح تاشحت أطيافها في ضوء النهار الساطع) .

هذا جزء من بوح ألسيدو (السيد بوقلادة) العربي المغربي الذي انتهي به المطاف خادماً لراقصة اسبانية، يحمل ملابسها، ويرافقها تابعا ذليلا بعد أن خسر ماله، واتزانه العقلي، وما عاد قادراً على العودة الى مكناس، فلا هو احتفظ ببيته المعاصر هناك، ولا استعاد بيت أسلافه الخاسرين.

لا تنتهي القصة هنا، فالراوي القادم من الشرق المغربي البعيد، خاض نفس المغامرة الليلية، وهيئ له أنه التقى بتلك المرأة الليلية .القمرية، وأنها همست له بنفس كلمة السحر: مانيانا (غدا)، ولكنه يعترف راوياً بدوره ما جرى له: وفي جهد اليائس انتزعت قدمي من موقفها وانفلت مسرعاً في رواق المدخل الى باب الزقاق المقفر. وهناك ملأت صدري من الهواء وزفرت زفرة فرجت عني، ثم انطلقت مسرعا، كأني أعدو الى المدينة وأنا أحس أن قناديل اشبيلية لا تزال تلقي على شباك أنوارها، وتطاردني بأشعتها لتجذبني، كما جذبت قبلي البروفيسور ألسيدو، أو السيد بوقلادة، على هاوية عالمها المسحور...

لقد أفلت الراوي، العربي القادم من الشرق، من سحر قناديل اشبيلية، ومن مصيدة الماضي، وزفر زفرة غير زفرة العربي الأخيرة، زفرة ليست زفرة تحسر، ولكنها زفرة النجاة من شرك الماضي، ووطء الحنين المدمر الذي لا يعيد من مضي الي السيادة بل يحيله عبداً ذليلاً، ومسخرة...

كأنما قناديل اشبيلية هي لعنة الفراعنة، هي لعنة الحلم والحنين والغرق في ماض ولى ولن يعود .

قصة مكتوبة بروح عربية، بفن قص عربي، بحكمة شرقية عميقة، بشعر وسحر، بلغة تأخذك الى عالم قصصي يبنيه القاص كلمة كلمة بسلاسة، فيستدرجك الى عالم قناديل اشبيلية، محيياً ذلك الزمان، زمان الوصل بالأندلس، الذي مضي ولن يعود ...

تنويه : في عمان العاصمة الأردنية، التقيت في فندق القدس بالسيدة شهلا العجيلي، الكاتبة، قريبة الكاتب الكبير عبد السلام العجيلي، وإذ عرفتني بنفسها رويت لها حكاية بسيطة وقعت لي مع الأستاذ العجيلي.

كنت قرأت له رواية (قلوب علي الأسلاك)، وساعتي أن في الرواية نقدا اعتبرته غير منصف لتجربة الوحدة بين مصر وسورية، وللرئيس جمال عبد الناصر، فكان أن كتبت مقالة عن الرواية، ومما أوردته أنه من مآثر مرحلة الوحدة، وجمال عبد الناصر، استصلاح مناطق (الغاب) في شمال سورية...

التقيت بالأستاذ العجيلي في مقر مجلة (المعرفة) السورية بدمشق، عند الأستاذ خلدون الشمعة، وهنا أحرجت لما امتدح بعض أعمالي الروائية، ثم نبهني بلطف أن سهل الغاب لا يقع في شمال سورية، وحدد لي المكان بالضبط وهو بيتسم!

شعرت بالحرج الشديد، والارتباك...

لقد تعلمت منه درسا كبيرا، وهو أن أتيقن عندما أكتب، وأن أكون دقيقا.

رويت للسيدة العجيلي الحادثة، وأبديت احترامي لهذا الكاتب الكبير، الذي ربما أخذت عليه مشاركته في وزارة (الانفصال)، واحترمته دائما ككاتب كبير...

قرأت ما كتبته السيدة العجيلي في القدس العربي، ونقلها ما رويته لها للأستاذ العجيلي، وأنني سمعت عن صدور مذكراته عن فترة مشاركته في حرب فلسطين عام ٤٨، وما رواه عن جيش الانقاذ...

سرني جدا أنه كتب لي اهداء على مذكراته، وأن ذلك الاهداء ربما يكون من آخر ما خط قلمه، ولقد أسعدني أن الأستاذ العجيلي ضحك كثيراً عندما سمع الحكاية من السيدة شهلا...

كلمتي هذه هي تحية متواضعة لهذا الكاتب الكبير، والتعرف على فنه القصصي، يرحمه الله...

هذه القصة هي القصة الأولى في المجموعة التي تحمل نفس العنوان (قناديل اشبيلية)...

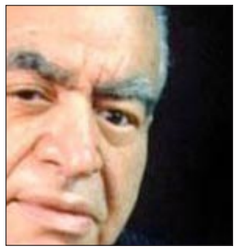

أبحرت إلى كل الموانئ

مرفأ الذاكرة لدى كاتب هذه السطور، على اتساعه وطول أرصفته، يضيق بالأحداث والصور والأقوال التي تزاحم فيه وعليه، وليس ذلك مستغربا على ما مر بي في ثمانين عاما من العمر قد انقضت لي، وعلى ظروف مختلفة عشت فيها ونشاطات مارستها في مجالات العلم والأدب، ومجالات السياسة والحرب، وفي عملي كطبيب، وفي الأسفار والعلاقات الاجتماعية، وفي غير هذه وتلك وهاتيك. أبعد ما استقر في ذاكرتي من صور هي بلا شك صورة ترجع إلى سني طفولتي الأولى، وذلك حين فكنت في الثالثة من عمري أو حين خطوت أولى خطواتي في سنتي الرابعة، عرفت مبلغي من العمر أيام هذه الصورة بعد ما كبرت وسمعت ماروا من أبناء بلدتي الصغيرة من تاريخ هذه البلدة، وهي الرقة على شاطئ الفرات في شمالي سوريا، ومن حكايات الأحداث التي مرت بها زمن طفولتي، تلك الصورة هي منظر جسم لامع، فضي اللون، يرتسم على صفحة سماء خفيفة الزرقة ويسير على تلك الصفحة بخط مستقيم وبحركة تبدو بطيئة لبعدها عن عيني، ثم منظر قطع صغيرة، مستطيلة، تتساقط من ذلك الجسم اللامع، قطعتان أو ثلاث أو أربع، لا أذكر اليوم كم كان عددها على الضبط. تتساقط ويحجب عن بصري مكان وقوعها جدران المنازل التي كانت في الجانب المقابل للقبو الذي كنت أتطلع من بابه الضيق إلى السماء فوقي. ذلك القبو الذي كنت فيه مع أمي، ومع نساء كثيرات معهن أطفالهن، كلهن يتزاحمن ليتطلعن من باب القبو إلى السماء وإلى تلك القطع المتساقطة من ذلك الجسم الفضي السائر على صفحة السماء.

عبد السلام العجيلي

بداية مع الحرب

عرفت عندما كبرت أن الجسم السائر ذاك كان طائرة حربية وأن تلك القطع المتساقطة قنابل مهلكة كانت الطائرة تلقيها على مواقع متفرقة من بلدتنا، وأن ذلك حدث في الأيام الأخيرة من شهر ايلول من عام ١٩٢١. هذه أبعد ما حفظته ذاكرتي من صور. ولعل استقرار هذه الصورة بهذه القوة في ذاكرة الطفل الصغير الذي كنته قد ترك في لاوعيي تأثيرا اصطبغت به حياتي المقبلة في كثير من جوانبها، والجوانب الفكرية والسياسية منها بصورة خاصة. تلك الطائرة كانت واحدة من طائرات جيش فرنسا الذي غزا بلادنا واحتلها باسم الانتداب بعدما قضى على الحلفاء بالعرب وتقاسموا بلادهم. وإلقاء قنابلها على بلدتي الرقة، كان لأن هذه البلدة أصبحت في ذلك الحين مقرا الحركة وطنية أعلنت الرقة وما حولها دولة عربية مستقلة لا تعترف بانتداب فرنسا، ب جندت جيشا وجهته إلى جبهة لمحاولة استنقاذها من يد المحتل الفرنسي، ذلك تاريخ مجهول لبلدتي الصغيرة بسطته في كتاباتي بعد مرور عقود طويلة من السنين على أحداثه، وليس هنا مكان روايته، ولكني أردت القول إنه قد يكون في استقرار هذه الصورة في خاطري طبلة ما يفوق ثلاثة أرباع القرن إرهاص لما ستكون عليه أفكار ذلك الطفل ويكون عليه سلوكه وتصرفه حين يغدو شابا وبعد أن يكتهل ثم يشيخ.

تتزاحم الصور على مرفأ الذكريات بعد تلك الصورة الأولى المفرطة في البعد، كبر الطفل في الخامسة من عمره وانتقل بذلك من حضن أمه إلى حضن المدرسة، كان انتقالا مبكرا بالنسبة لانتقال أنداده الذين كانوا يفوقونه في السن، فأكسبتْ ذلك مكاسب وعرضه لبعض الهشاشة في تكوينه العلمي لم يتخلص منها إلا بعد عناء وزمن طويل.

عالمي الجميل

كانت المدرسة عالمي الجميل والمفضل، ولكنها لم تكن كل العالم لي، كانت هناك المطحنة التي يملكها والدي، وهناك مضارب أعمامي في البادية حول بلدة الرقة، أو بالأحرى في سهول تلك البادية التي تعشب في الربيع فتحرق أعشابها شمس الصيف الملتهبة فترتد مقفرة جرداء. كنت أتردد على المطحنة لأحمل لأبي طعام غدائه وعلبة دخانة اليومية من منزلنا، ولأتأمل في الرحى الدائرة وهي تتلقى الحنطة حبوبا قاسية وتقذف بها دقيقا ناعما، ولأتطلع إلى المحرك ذى الدولاب بين الضخمين وهما يدفعان بالمكبس إلى جوفه ويجتذبانه من ذلك الجوف، في حركات منتظمة عنيفة ورشيقة في آن واحد، وحدث في إحدى مرات تطلعي ذاك أن علق طرف القنبازْ الذي كنت أرتديه بالسير الجلدي لمضخمة الماء التي كانت مركبة فوق بئر في جانب المحرك، وهو يدور على دولابه، فلم أشعر إلا وأنا مرتبط بذلك الدولاب مرتفعا إلى قمته قبل أن ينحدر فيلقيني في قرارة البئر. سارع أرمين، ميكانيكي المطحنة الأرمني، إلى واجتذبني من يدي بقوة قادفا بي إلى الأرض بجانب فوهة البئر. وسلم الله ذلك الصبي الطلعة، القليل الحذر من هلاك محقق آنذاك.

أما مضارب أعمامي فقد كنت أتردد عليها، في الربيع، في العطل المدرسية وبعد الظهر من كل خميس ويوم الجمعة التالي له. كان أهل بلدتنا، وأسرتنا من بينهم، نصف حضر يسكنون منازل البلدة الحجرية نصف السنة ويخرجون إلى السهوب العشبة في الربيع وأوائل الصيف مع أغنامهم يتنقلون بها بين المراعي. والدي كان من أوائل الذين تحضروا وسكنوا البلدة في السنة بكاملها، ولهذ كنت ألجأ إلى منازل اعمامي في بيوت الشعر في المراعي كلما أتيحت لي الفرصة، فأرعى مع صبيانهم الخراف وأطاردها حافي القدمين معهم، وأنام تحت سماء الربيع المتألقة النجوم وأستمع في الفجر، وأنا بين النوم واليقظة، إلى أحاديث المتمارين المتحلقين حول النار الموقدة في كاسر البيت قبل أن يهب الرجال ليأتوا بنعاج القطيع إلى إلى أمام المضارب وتهب النساء لتحلب تلك النعاج.

منعطف حياتي

بعد الدراسة الابتدائية كان علي أن أنتقل إلى حلب المتاعبة تعليمي لأن الرقة لم تكن تحوي مدرسة ثانوية، وهنا وفي ختام السنة الأولى من الدراسة الثانوية، حدث ما اعتبرته بعد ذلك المنعطف الكبير في حياتي. أصبت في العطلة الصيفية بمرض ألجأ والدي إلى أن ينقلني إلى حلب ليعالجني أطباؤها، لا أذكر اليوم، وأنا الطبيب، ماذا كان ذلك المرض، الذي أذكره أن الدكتور مونييه، وهو الطبيب السويسري الجنسية الذي تولى العناية بي في مستشفاه قراية عشرة أيام، أشار على أبي بأن يقطعني عن الالتحاق بالمدرسة عاما كاملا، بقيت العام التالي بطوله في الرقة بناء على اشارة الدكتور مونييه، وبقيت عامين بعده فيها بناء على رغبة الوالد الذي أرادني على أن أتقطع عن الدراسة لأعينه في إدارة أعماله وأملاكه، أنا الذي كنت ولده الوحيد آنذاك.

كان ذلك مصيرا قاسيا لي أنا الذي فتحت آفاق تفكيره وألهبت خياله قراءاته الكثيرة والمختلفة، ولكن رب ضارة نافعة، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم، كانت هذه الأعوام الثلاثة المتتابعة ضرورية لنضج تفكيري كما أنها ألحقتني بمدرسة من نوع آخر، رحت أتلقى المعرفة فيها لا من أفواه المعلمين أو من صفحات الكتب، بل من مخالطة الناس وممارسة الحياة والتعامل المباشر مع أمورها.

تلك هي مدرسة العمل إلى جانب والدي وتحت إشرافه، عملت في المطحنة التي كنا نملكها مشرفا عليها وجابيا على غلتها، أتاح لي ذلك التعرف على أصناف الناس الذين كانوا يتوافدون علينا، نساء ورجالا، من البلدة ومما حولها في المنطقة الواسعة المحيطة بالبلدة، البدو كانوا يأتوننا بقمح مؤونتهم على جمالهم، والقرويون على الحمير، وسكان البلدة على عرباتهم التي تجرها الكدش، وهي غير الأصائل من الخيل، أصبحت على معرفة بالقبائل نسبا ولهجات كلام ورزايا أحداث سالفة وجديدة، هذا في النهار، أما في الليل فقد أتاح لي سن اليفع الذي قاربته أن أكون من رواد مضافة أسرتنا، أجلس منها قريبا من المدخل، مستمعا إلى أحاديث الكهول عن شئون الأقارب والأباعد، في بلدتنا ومنطقتها وفي مدننا وبلادنا بأسرها. وفي شهر رمضان بصورة خاصة كنت أستمع إلى أحد أعمامي ممن كانوا يحسنون القراءة يتلو على رواد المضافة، بعد صلاة العشاء كل ليلة، فضلا من كتاب فتوحات الشام للواقدى أو من رواية سرور آغا وصالحة خانم وسلطان عبد الحميد المترجمة عن التركية، وحين كانت تتأزم أمورنا السياسية مع فرنسا المحتلة كان حضور المضافة يتحلقون حول ذلك العم أو غيره وهو يتلو عليهم أخر افتتاحيات نجيب الريس، في جريدته القبس، في مهاجمة المحتل وتسفيه سياسته، فتلتهب النفوس حماسة وتعلو الأصوات بالاستنكار والاحتجاج والتنديد.

القصيدة الأولى

كان تلامذة مدرستنا الوحيدة في البلدة قد تهيأوا، بإشراف معلميهم، ليقوموا بتمثيل مسرحية عنوانها "وفاء السموءل"، كنت أحضر معهم تجاربها وأشاركهم في إعدادها، نظمت أنا لهذه المناسبة قصيدة، كانت أول قصيدة لي صحيحة الوزن وسليمة اللغة على ما أذكر، وعهدت بها إلى أحد الفتيان ليغتتح بها التمثيل مشترطا عليه ألا يذكر اسمي كناظم لها، كان اشتراطي هذا نابعا من انطوائي على نفسي وحياء مفرط يجعلني أتهيب من كل إشارة إلى تميزني عن الآخرين، بدأ تمثيل المسرحية مسبوقا بإلقاء تلك القصيدة، ولكن ما اشتركت على ملقيها لم يدخل في حيز التنفيذ فقد أعلن ذلك الفتى اسمي بأعلى صوته منوها بأني أنا ناظم القصيدة، وما جرى في اليوم التالي لحفلة التمثيل أن أقرباء أبي وأصدقاءه تكاثروا عليه بلومهم إياه على دفن مواهبي في العلم والأدب تحت غبار المطحنة وفي زيتها، وبمطالبتهم له بإعادتي إلى حلب كي أتابع الدراسة التي هجرتها في ثانويته.

وهكذا عدت إلى حلب ومدرسة التجهيز الثانوية فيها، وقد ضاعت على أربع سنوات من الدراسة، استدركت سنتين من تلك الأربع في فحص تأهيلي، اجتزته بنجاح، وضاعت مني سنتان، ولكن هل ضاعت مني تلكما السنتان حقا؟ الصحيح أن لا، سنوات الانقطاع التي ضاعت مني، أو على، اكتشف بعدها أنها اكسبتني فوائد لا تقدر بثمن، عدا نضج الفكر وتجربة العمل ومعرفة أصناف الناس التي تحدثت عنها، وجدتني قد حصلت من قراءتي على زاد من المعرفة في علوم شتى أتفوق بها على أقراني في المدرسة التي عدت إليها، وأحيانا أتفوق بها على أساتذتي في بعض تلك العلوم. وأهم من ذلك كله اكتشف أن تهيبي من الحساب والرياضيات والعلوم الحقيقية، الذي كنت أحسبه ضعفا وعجزا مني فيها، اكتشفت أن ذاك التهيب قد فارقني كليا وتحول إلى مقدرة وولع شديد بتلك العلوم.

ثابرت في المدرسة الثانوية على قرزمة الشعر، أعلى نظمه نظما هزيلا في أول الأمر، إلى أن استقام لي أمره بالاستمرار وبتوسع المعرفة، إلا أني لم أتعد فيه المزاح والتسلية، أسخر فيه من رفاقي وأرسم به صورا ضاحكة لأساتذتي، وأحيانا أنظم به نظريات الهندسة ودروس الكيمياء في أراجيز ساخرة على طريقة ألفية ابن مالك! ذلك أن تعلقي الكبير والجاد كان بالعلوم الحقيقة من فيزياء ورياضيات، يعجبني العناء الذي أتحمله في إتقانها والنجاح في روسها، في حين أن النجاح في الأدب، نثره وشعره، كان يواتيني بسهولة ويشهد بنتائجي المشرفة فيه المعلمون والرفاق، وإلى جانب هذا نمت في نفسي، مع تقدمي في الصفوف العليا، بذرة حب العمل العام، العمل لصالح الذين أنا منهم في مجتمعي وفي الوطن الذى هو وطني. أصبحت في السنين الأخيرة من الدراسة الثانوية الرئيس المنتخب للجان الطلاب، والمؤسس لمجلة أصدرتها مع رفاقي وسميتها "صوت الطالب"، والمشارك مع إخواني في الإضرابات والتظاهرات ضد المحتل الفرنسي، والمتكلم باسم أولئك الإخوان حين يقتضي الأمر المديرين والوزراء.

اسماء مستعارة

وبمثل هذا التستر والتوقيع بالأسماء المستعارة نشرت كتابات أدبية كثيرة في عدد من الدوريات المشتهرة في ذلك الزمن، مثل مجلة "الحديث" في حلب و "المكشوف" في بيروت، وهي دوريات كانت تحفل بما يكتبه أساطين الفكر والثقافة ويطمح الكثيرون إلى أن تظهر أسماؤهم فيها. أما أنا فكنت قانعا بأن يجاور إنتاجي الأدبي في تلك الدوريات إنتاج المشاهير، وبأن يلقى الإعجاب من القراء دون أن يعرف أحد، إلا الندرة من أصحابي، بأني كاتب تلك القصص أو المسرحيات أو ناظم تلك القصائد، واستمر هذا إلى أن نلت شهادة البكالوريا من صف الرياضيات لا من صفوف الفلسفة أو الآداب، وإلى أن احتضنتني الجامعة السورية في دمشق، في دراستي الطب فيها، بعد احتضان مدرسة التجهيز الثانوية لي في حلب.

العلم، والأدب، والعمل العام، هي المهام الرئيسة الثلاث التي حملتها معي من مرحلة الدراسة الثانوية إلى المرحلة الجامعية، ثم إلى جميع مراحل حياتي التالية لهذه وتلك. في العلم كان الطالب الجاد والدائم النجاح، ثم المتابع لكل ما هو جديد في الميدان الذي اخترته لحياتي، ميدان الطب والعلوم التي يستند إليها، والمطبق لمعرفتي بكل إخلاص وتفان على من هم بحاجة إليها في ذلك الميدان، وفي الأدب تابعت مسيرتي كهاو له، أعتبره متعة وتسلية، ولكني لا أستهين به ولا تهاون في تلمس الإتقان والجودة فيه، فظلت ردحا من الزمن، سبع سنوات أو ثمان، أنشر ما أكتبه في الدوريات المختلفة متسترا وراء الأسماء المستعارة، كنت أنتقل من اسم إلى آخر، معميا على من يريد معرفتي، إلى أن وقعت في فخ أحد الصحفيين الذي كشفني وعرف بي ثم أقنعني، بعد أن أصبح صديقا لي، بأن ليس من حرج في أن يعرفني قرائي ولا من خطر في أن تلحق بي الشهرة! وفي هذا المجال أذكر أن أحد الدارسين أحصى الأسماء المستعارة التي كتبت بها بين عامي ١٩٣٦ و ١٩٧٠ فوجدها تتجاوز اثنين وعشرين اسما.

أما عن العمل العام، فقد كان استمرارا لما كنت بدأته في دراستي الثانوية، لا مجال في العمل العام للمجهولية وللتستر وراء الأسماء المستعارة، عرفت بين أقراني بالنشاط في هذا الميدان، وعندما بلغت الصفوف المتقدمة أصبحت رئيس لجنة الطلاب في معهدي لعدة أعوام ومشاركا مرموقا في فعاليات الأوساط الجامعية من ثقافية ورياضية وسياسية. وكانت تلك مقدمة لانغماري، بعد تخرجي في الجامعة السورية طبيبا، في خضم العمل السياسي في بلدي، قمت بترشيح نفسي للنيابة في بداية عملي كطبيب في بلدتي، الرقة، وفزت بعضوية المجلس النيابي السوري عنها، وكان ذلك في صيف عام ١٩٤٧، أعني منذ أكثر من نصف قرن مضى.

ذكريات العمل السياسي، كما باشرته بنفسي في نحو من سنتين كنت فيهما أحد ممثلي الشعب في المجلس النيابي ذاك، هي من الكثرة والأهمية بحيث يضيق بها مرفأ الذاكرة. كانت سوريا قد نالت استقلالها التام بجلاء جيوش المحتل عنها منذ سنة واحدة فانصرف حكامها ووراءهم الشعب إلى الجهاد الأكبر بعد الجهاد الأصغر، أعني إلى معركة البناء واستعادة الحقوق المغتصبة والسعي لتحقيق المثل العليا. الذكريات كثيرة كما قلت. وأقف منها على ذكريات وقائع معينة كانت من أهم ما مربي تأثيرا لتفكيري وتوجيها لسلوكي. تلك هي الوقائع التي شهدتها أو شاركت فيها ثم تابعت مجرياتها ومازلت لها متابعا، وأعني بها وقائع القضية الفلسطينية.

التطوع من أجل فلسطين

احتللت مقعدي في مجلس النواب في وقت وصلت فيه القضية الفلسطينية إلى قمة التأزم. تألب العالم الغربي، ومعه الاتحاد السوفيتي، على حق العرب وصدر قرار هيئة الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين، على أن يطبق هذا القرار في ١٥ ايار سنة ١٩٤٨. لم يرض العرب، شعوبا وحكومات بالقرار الجائر وتنادوا إلى الحيلولة دون تنفيذه بقوة السلاح عن طريق الجهاد الشعبي المتمثل بأفواج جيش الإنقاذ، وهي أفواج تألفت من متطوعي البلاد العربية المختلفة، أولا، ثم بتدخل الجيوش الرسمية إذا اقتضى الأمر بعد ذلك، وفي غمرة أحداث تلك الفترة الحرجة وجدتني أجهر مهامي كنائب في المجلس وألتحق متطوعا بمجاهدي فوج اليرموك الثاني من جيش الإنقاذ، وهو الفوج السوري من ذلك الجيش، يرافقني في ذلك الالتحاق زميلي في النيابة الأستاذ أكرم الحوراني، أكون في مقدمة من دخلوا الأرض الفلسطينية من المجاهدين، سعيا وراء نصرة فلسطين العربية واستنقاذها من مخالب تحالف الصهيونية العالمية وأعداء العرب في العالم الغربي على أرض العرب المقدسة.

كان فوج اليرموك الثاني بقيادة أديب الشيشكلي الذي كان ضابطا برتبة رئيس وهي الرتبة التي تحول اسمها اليوم إلى رائد أو مقدم، وكان دخولنا إلى فلسطين من الحدود اللبنانية، جنوب بنت جبيل والنبطية، في ليلة الثامن من شهر كانون الثاني سنة ١٩٤٨. باشرنا عملياتنا الاستكشافية والحربية التي لا مجال للتفصيل عنها طيلة الشهور الخمسة التي سبقت موعد دخول قرار التقسيم مرحلة التنفيذ. واذا كنت قد عدت بعد تلك الشهور إلى ماكني في مجلس النواب متابعا مسيرتي السياسة تحت قبة البرلمان وفي المحافل المختلفة وعلى صفحات الجرائد والمجلات، فإن التجربة التي عدت بها من المعاناة على أرض الواقع في فلسطين فتحت عيني على أمور كثيرة وبصرتني بأمور كثيرة كنت بعيدا عن معرفتها مثل الآخرين الذين لم يتح لهم معايشة ما عايشته أنا. أكتشفت في تلك التجربة أشياء كثيرة عن سير أمورنا، وعن خصائص شعوبنا، وعن أقدار رجالنا، ومن سوء الحظ أن تجربتي، كما رددت في مناسبات كثيرة، قد تكشفت لي عما خيب أمل الشاب المثالي الذي كنته في تلك الأيام، ومن سوء الحظ كذلك أن سير أمورنا القومية منذ عام ١٩٤٨ إلى اليوم جاء مؤيدا تقديراتي السيئة عن وضعنا وإمكاناتنا، وهي التقديرات التي وضعتها لنفسي في ذلك الحين.

العودة للأدب

وأعود إلى الأدب مرة أخرى خاتما به هذا الحديث الطويل. لقد دأبت على أن اعتبره لنفسي وأذكره للآخرين كهواية، ممتعة وسامية في آن واحد، أمارسها في غير عناء وفي قليل من الجد. ولكن، كما قال الشاعر القديم:

صار جدا ما لهونا بهرب جد جره اللعب!

فما يطفو على ألوان النشاط المختلفة في حياتي، وما يعرفني به الاخرون ويحاورونني فيه ويتقصون أخباري فيه، هو الأدب قبل الطب وقبل السياسة وقبل فعاليات مختلفة أخرى أجدني ما قصرت فيها عن أداء ما وجب علي ولا عن تقديم ما قدمته، متطوعا ومفيدا، للناس حولي وللقيم والمعتقدات التي أومن بها، عطاءاتي الأخرى تنحصر معرفتها في حلقات ضيقة وبين أناس محدودين، أو أن دوائها لا يمتد إلى زمن طويل. أما العطاء الأدبي مني ومن أمثالي فإنه، إذا كان يحمل صفات تؤهله لذلك، طويل الديمومة وعريض الجمهور، لقد انتهى بي إصرار الآخرين على تقديم صفتي الأدبية على سائر صفاتي الأخرى أن تابعتهم أنا إلى الإيمان بقيمة هذه الصفة وأكاد أقول إن ذلك حدث على الرغم مني! ولعلي في هذا الواقعة التي أرويها للقراء في مختتم المطاف أضرب مثلا لهذا الذي ذكرته عن تقدير من عدوني بتقديرهم لما رأوه في من موهبة تستحق التقدير.

حدث ذلك منذ ستة أعوام أو سبعة، زارني في بلدتي السيدك. لوشون، وهو الملق الثقافي في السفارة الفرنسية في دمشق أيامذاك، وكان قارئا لأعمالي المترجمة إلى الفرنسية ومعجبا بها، وفي زيارة لي إلى دمشق بعد عودته هو إليها اتصل بي هاتفيا وسألني عما إذا كان بإمكاني أن أمر عليه، في مكتبه، قلت له: أفعل، وبكل سرور، فوجئت حين دخلت مكتب الملحق الثقافي الفرنسي بأن رأيت صورة كبيرة لي معلقة على أحد جدران المكتب. كانت صورة قديمة، أخذت لي في أيام الصبا، أبدو فيها ممتطيا فرسا أصيلة كنا نملكها في ذلك الزمن ومرتديا ثيابا عربية، استغربت وجود هذه الصورة وسألته عنها. ابتسم وقال إنه عثر عليها بحجم صغير حين زار الرقة، وإنه كبرها وأحاطها بهذا الإطار في بيروت، وإنه استدعاني ليرجوني أن أضع توقيعي له عليها. لم أملك إلا أن أجاريه في الابتسام وقلت له: ولكنك تضع صورتي في صدر مكتبك الرسمي، هذا المكان ليس لي، إنه مكان المسيو ميتران! كان فرنسوا ميتران يومذاك هو رئيس الجمهورية الفرنسية. كان جواب الملحق الفرنسي، الموظف في سفارة بلاده، هذه الكلمة الغربية التي قالها بلهجة اقتناع: أنت قيمة أكثر ثباتا من المسيو ميتران!

بالطبع لم أكن من الغرور، أو من فرط الإعجاب بالنفس، بحيث أصدق أن قيمتي تفوق قيمة رجل كان رئيس جمهورية فرنسا في يوم من الأيام وكان مالىء الدنيا وشاغل الناس في زمن رئاسته، ولكن كلمة المجاملة التي نطق بها مخاطبي الكريم، السيدك. لوشون، تصور بجلاء اهتمام نخبة المثقفين، إن لم أقل عامتهم، في عالمنا الحاضر بالأدب وبمبدعيه وتقديرهم لهم وله. وعلى ما يشبه الرغم مني، كما أسلفت القول، أصبحت مجرورا إلى هذا التقدير وذلك الاهتمام بالفن الذي بدأت فيه هاويا مثل المستهين ثم انتهيت إلى أن أجده أجدر ما أختم به هذا الحديث عن مرفأ الذاكرة ،وعن الخواطر التي رست فيه بعد طول الإبحار.

manarat

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم

التحرير
نزار عبد الستار

الاخراج الفني
مصطفى التميمي

التصحيح اللغوي
محمد حنون

منارات

طبعت بمطابع مؤسسة
للاعلام والثقافة والفنون

http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

2006 - 1918